

جائزة دبي الدولية
للقرآن الكريم

سلسلة الدراسات القرآنية
(٣)



حكومة دبي
GOVERNMENT OF DUBAI

الميراث همل
غفر الله له ولوالديه

الخصائص الموضوعية والأسلوبية في حديث القرآن عن القرآن



الدكتور
عبد العزيز بن صالح العمّار

الميراث همل
غفر الله له ولوالديه

جائزة دبي الدولية
للقرآن الكريم

سلسلة الدراسات القرآنية
(٣)

المسحُحَمَلُ
غفر الله له ولوالديه

2009-09-03

www.alukah.net

الخصائص الموضوعية والأسلوبية في حديث القرآن عن القرآن

تأليف

د. عبدالعزيز بن صالح العمّار

المسحُحَمَلُ
غفر الله له ولوالديه

جميع الحقوق محفوظة

لجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم

الطبعة الأولى ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

ما ورد في هذا الكتاب يُعبّر عن رأي صاحبه ولا يُعبّر بالضرورة عن رأي الجائزة
تمت الطباعة بموجب إذن المجلس الوطني للإعلام بدولة الإمارات العربية المتحدة

رقم (أ ع ش / ١٤٩٨)

تاريخ ١٩ / ١٢ / ٢٠٠٦ م

DUBAI INTERNATIONAL HOLY QURAN AWARD جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم

ص.ب : ٤٢٠٤٢ دبي - أ.ع.م. ، هاتف : ٢٦١ ٠٦ ٦٦ (٩٧١ +)، فاكس : ٢٦١ ٠٠ ٨٨ (٩٧١ +)

موقع الإنترنت : www.quran.gov.ae البريد الإلكتروني : quran@eim.ae



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله، رحمة الله للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد: فقد نزل القرآن على قلب رسول الله (ﷺ) بلفظه ومعناه، ونطقه وتجويده، وترتيبه وتنظيمه، وقد تكفل الله بحفظ آياته وكلماته من التحريف والتغيير والتبديل فقال في سورة الحجر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر- ٩)، وجعله الله المعجزة الخالدة الباقية إلى يوم الدين، فأعجز البشر أن يأتوا بسورة من مثله فقال في سورة البقرة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة- ٢٣)، وقد تناول العلماء هذا الكتاب العظيم بالدراسة والتمحيص، فاستخرجوا منه الكنوز الثمينة، وأسسوا في ظلال آياته قواعد علومهم، وقد أظهرت كثير من الاكتشافات العلمية المعاصرة حقائق مذهلة سبق القرآن إلى ذكرها أو الإشادة إليها، ولا بد من أن تجد التطابق بين ما قاله الله وما خلقه الله، كما قال تعالى: ﴿سَرِيهِمْ أَتَيْنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت- ٥٣)، ويسر جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم أن تسهم في خدمة هذا القرآن العظيم، وتقدم إلى المكتبة الإسلامية سلسلة الدراسات القرآنية تعميماً للثقافة القرآنية، وإن اللجنة المنظمة لجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم لتقدم شكرها إلى مؤلف الكتاب وإلى كل من ساهم في إخراجه وطبعه ونشره وتوزيعه. سائلين المولى عز وجل أن يجعل هذا العمل في صحيفة صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة، رئيس مجلس الوزراء، حاكم دبي وراعي جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

اللجنة المنظمة لجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمداً يليق بجلاله وكماله، وشكراً له يوافي نعمه، ويكافئ مزيده، حمداً له - سبحانه - وشكراً أن فضلنا بالقرآن الكريم على الخلق أجمعين، وآتانا مالم يؤت أحداً من العالمين، أنزله علينا هداية ومنهاجاً، والصلاة والسلام على من كان خلقه القرآن، محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه الكرام، ومن اهتدى بهديه، واقتفى أثره إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد جاء اختياري للكتابة في هذا الموضوع؛ لأهميته، وجليل شأنه في الدراسات القرآنية، فقد حظي بمبحث المكي والمدني بالعناية الفائقة، وبالمكانة اللاتقة به لدى علماء المسلمين، فقد أخذ حقه وحظه في الدراسات القرآنية، فقل أن تجد كتاباً يبحث في علوم القرآن إلا وترى هذا المبحث قد أخذ حيزاً من مساحة ذلك الكتاب في الإشادة به، والإشارة إلى أهميته وثمرته، ومدى عناية العلماء الجديرة به.

ولن أتحدث عن خصائص المكي والمدني كيفما اتفق، وعلى وجه العموم، بل سأقيد هذه الدراسة في الآيات التي تحدثت عن القرآن الكريم المتضمنة هديه، وبيان ما اشتمل عليه من الخير والهدى، وهذا ما يميز هذه الدراسة، ويطلعها بشيء من الخصوصية والتميز، ويُفضلها على غيرها من الدراسات التي تتناول هذه الخصائص على الإطلاق، فسأقف في هذه الدراسة مع خصائص هذه الآيات الموضوعية والأسلوبية، مستصحباً معي حال الأقوام التي تنزلت عليهم هذه الآيات، مبيناً مدى توافق هذه الخصائص - بنوعها - مع أولئك الأقوام، مبيناً في الوقت نفسه الأسرار البلاغية، والنكت البيانية، في توافر هذه الخصائص في هذه المرحلة، والأهداف التي جاءت لتحقيقها، والأغراض المراد بيانها وتقريرها.

وقد ذكر العلماء أهمية هذا المبحث وثمرته، ومدى عناية العلماء الفائقة به، وكثرة المؤلفات فيه، وبسطوا القول في فوائد معرفة المكي والمدني، ولعل أهم ما

يهمنا من هذه الفوائد، وهو الذي يخصنا، ويتعلق بالدراسات القرآنية البلاغية : أن معرفة المكي والمدني يجعلنا ندرك الفروق الأسلوبية، والخصائص الموضوعية والتعبيرية للقرآن الكريم، ومن ثم الاستفادة من هذا المبحث في الدعوة إلى الله، وذلك أن هذا المبحث يُعطي الدارس المنهج في طريقة التعامل مع الناس على اختلاف أجناسهم، وتعدد مشاربهم وتنوعها.

كما يُعطينا هذا المبحث دلالة مباشرة على أن لكل مقام مقالاً، فلكل قوم ما يخصصهم من الخطاب، ومن ثم يأتي الخطاب في كل الظروف والأحوال متلائماً مع مقتضيات الأحوال، مراعيّاً لها، وهل البلاغة إلا هذه. ^(١)

كما يُوقفنا هذا المبحث على دلالات وإشارات لفهم النص القرآني، وذلك من خلال معرفة الأجواء التي تنزل فيها، والوقوف على أحوال المخاطبين بهذا النص، والأجواء المحيطة به، وفي هذا استيفاء لمعاني النص القرآني، واستقصاء لدلالاته ومدلولاته، وكشف عن أسرارهِ، وما يحيط به ^(٢)، كما سيتبين شيء من هذا من خلال النظر في خصائص الآيات المكية والمدنية في حديث القرآن عن القرآن. وبعد: فهذا ما سأسعى إلى تحقيقه، والوصول إليه، فإن تم ذلك على الوجه الذي أريد فقد حققت مرادي، وأصبت مبتغاي، وذلك بفضل منه - سبحانه - وتكرم، وإن كانت الأخرى فحسبي أن بذلتُ وحاولتُ، وإن لم أبلغ الكمال فحسبي - أيضاً - أنني سعيْتُ له واجتهدتُ.

وثمة أمر أخير أتوجه به إلى من قرأ هذا الكتاب، ونظر فيه أن يدعو لمن كتبه وأخرجه، كما أطلب منه - تكملاً - التسديد والتوجيه، والنقد والرد، وذكر ما عن له من نقص، وبيان ما بدا له فيه من قصور، فأني متقبل ذلك كله بصدر رحب، شاكر له كل الشكر.

والحمد لله رب العالمين.

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن : ٥٩، الشيخ: مناع القطان.

(٢) انظر: دراسات في علوم القرآن الكريم : ١٢٧، د. فهد الرومي.

توطئة

من المعلوم بادئ ذي بدء أن القرآن الكريم لم ينزل جملة واحدة على رسول الله (ﷺ) ، وإنما نزل منجماً مفزاً على امتداد بعثته كلها، فقد امتد نزول القرآن ثلاثاً وعشرين سنة، فقد قضى (ﷺ) في مكة بعد بعثته ثلاث عشرة سنة، وقضى بالمدينة عشر سنين إلى أن جاور ربه في الرفيق الأعلى .

وكان القرآن في هاتين المرحلتين ينزل على رسول الله (ﷺ) حسب الوقائع والحوادث، وعلى جميع الظروف والأحوال التي يكون عليها رسول الله (ﷺ)، ونظراً إلى متطلبات الدعوة وسيرها، ونظراً إلى اختلاف الأجواء التي تعيشها، والمواقف التي تواجهها، وفي كل هذه الأحوال والظروف كان القرآن ينزل فيها، فقد نزل في الأمصار والقرى، وفي الجبال والوهاد، وفي الليل والنهار، وفي السفر والحضر. ^(٣)

تعريف المكى والمدني :

ونظراً إلى تعدد هذه الأحوال واختلافها، جاء الاختلاف في تحديد المكى والمدني، فقد تعددت الأقوال في تعريفه، بيد أن أجمع هذه الأقوال وأكثرها دقة وتحديدًا، وهو المشهور، والمختار لدى كثير من العلماء : أن المكى ما نزل من القرآن قبل الهجرة، سواء كان في مكة أو خارجها، قريباً منها أو بعيداً، وأما المدني فهو ما نزل بعد الهجرة، سواء نزل في المدينة أو خارجها، قريباً منها أو بعيداً، حتى وإن كان في مكة. ^(٤)

وهذا التقسيم للمكى والمدني بالنظر إلى زمن النزول، فما كان قبل الهجرة فهو مكى، وما كان بعدها فهو مدني، فإذا كانت الهجرة هي الحد الفاصل، ونقطة

(٣) انظر: دراسات في علوم القرآن الكريم: ١٣٧، د. فهد بن عبدالرحمن الرومي، و: علوم القرآن الكريم: ٤٨، د. عبدالمنعم عمر.

(٤) انظر: البرهان: ١ / ١٨٩، للزركشي .

التحول في تاريخ الدعوة الإسلامية فلتكن كذلك الفيصل في تحديد المكي والمدني، إذ ليس ثمة حدث أولى وأليق بهجرته (ﷺ) للتفريق بين عهدين، فحسبك بهذه الهجرة حدثاً غير مجرى التاريخ^(٥)، فبعد الهجرة تمايز ما نزل بعدها من القرآن عما قبلها تمايزاً واضحاً جلياً، من حيث موضوعات القرآن وأسلوبه.

(٥) انظر: دراسات في علوم القرآن: ٥٦، د. عبد القهار داود العاني، و: المكي والمدني في القرآن: ١٤، د. محمد بن عبد الرحمن الشايع .

المبحث الأول خصائص الآيات المكية

المبحث الأول: خصائص الآيات المكية

حتى تتبين خصائص الآيات المكية في حديث القرآن عن القرآن لا بد من النظر - أولاً - في حال القوم الذين عاشوا في هذه الفترة الزمانية والمكانية، التي تمثل جزءاً كبيراً ومهماً من مراحل الدعوة، ففيها نزل كثير من القرآن.

ومن المعلوم - أو مما ينبغي أن يُعلم - أن القرآن - وهو كلام رب العالمين - إنما أنزله - سبحانه وتعالى - لمعالجة النفوس، وإرشادها إلى سبل الحق والرشاد، ومن ثم مخاطبتها وإقناعها بالمبادئ والقيم، التي يجب أن تؤمن بها، وتعمل بمقتضاها، وتسير على نهجها وهداها، ومن ثم فقد جاءت الآيات في العهد المكي وفق أحوال أولئك الأقوام المخاطبين بها، ووفق الظروف المحيطة بهم، ومع ما يتوافق مع خصائصهم وصفاتهم، فقد رُوعي أحوال المخاطبين بهذه الآيات، ونُظر ما هم عليه، ومن هنا كانت خصائص الآيات في هذه المرحلة متلائمة ومتوافقة كل الموافقة مع سمات هذا المجتمع وخصائصه، فما صفات هذا المجتمع؟ وما أبرز طبائعه التي تمسك بها، وناجح عنها؟ بل وعادى من أجلها وقاتل؟^(٦)

نزل القرآن في هذا العهد والقوم في جاهلية جهلاء تُعمي وتُصم، يعبدون الأصنام والأوثان، ويشركون بالله العظيم، ويكذبون بيوم الدين، وقد كان ذلك المجتمع عنيداً صلباً، فقد كانوا غلاظ الأكباد، قساة القلوب، جفاة الطباع، أهل حمية وجاهلية، وخطرة وعنجهية، فقد نشؤوا في الشرك وشبوا عليه، ولهم عاداتهم وتقاليدهم التي تمسكوا بها، وبنوا عليها حياتهم، وألفوها، وركنوا إليها، والناس عبيد ما ألفوا، لا خلاص لهم منها ولا انفكاك، وهم مع هذا الداء في الخصومة، أهل مماراة وجدل، ولجاجة في القول، يصدرون في ذلك كله عن فصاحة وبيان، واقتدار في القول، فقد ملكوا أزمته، وانقاد لهم، يصرفونه حيث شاؤوا.

(٦) انظر: علوم القرآن الكريم: ٥٤، د. عبد المنعم غر.

كان المشركون في هذه الفترة من زمن الدعوة هم الكثرة الكاثرة، والسواد الأعظم، وقد أدى بهم هذا كله إلى أن يقفوا في وجه الدعوة الجديدة، وفي وجه أصحابها وقفة عدوانية شديدة، فقد حاولوا جهدهم وبما أوتوا من عدة وعتاد، ألا ينتشر الدين الجديد، وألاً ترتفع له راية.

وقد تزعم هذا الموقف وقاده أهل الزعامة منهم والوجاهة، فهم الذين يخافون على مناصبهم وعروشهم، ويحرصون على بقائها غير منازعين فيها، لذا فقد ناصبوا الدعوة الجديدة العداء، وحاربوا من جاء بها، وأنكروا القرآن إنكاراً شديداً، وكفروا به، وكذبوا كل ما جاء فيه، ووجهوا إليه تهمهم الباطلة، وافترأوا تهم، ورموه بكل ما يحطُّ من شأنه، وينقص من قدره بزعمهم.^(٧)

فهذا حال القوم، وإذا ما طُبعوا عليه من الجحود والجدل والإنكار، فهل من المناسب، والحالة هذه، ومع هذا العدو اللدود المعاند المكابر الذي « يُرسل الكلام كما يرسل قوته على عواهنه دون تحفظ، هل يكون من المناسب مع مثل هذا، الحديث معه بأسلوب لين هادئ، بعد أن ضاعت معه أساليب المنطق الهادئة؟ لا، فكلما كان الموقف يحتاج إلى حسم وشدة وتخويف وتهديد وزجر كانت الفقرات القصيرة، والكلمات المعبرة الشديدة الوقع أشد مناسبة، لهذا الموقف.

وهكذا كان القرآن وهو في الذروة العليا من الفصاحة والبلاغة ومراعاة مقتضى الحال، فإذا وجدت آيات أو سوراً قصيرة، وأسلوباً يزعمج ويهدد ويقسو ويشدد، يرد هجوماً على رسول الله (ﷺ)، ويهدد المعتدين؛ فاعلم أن هذه آيات مكية». ^(٨)

ومن هنا نجد أن القرآن في العهد المكي يتميز بأنه قوارع زاجرة، وشُهْب منذرة، وحممٌ مُحْرِقة، وحجج ناطقة تزلزل عرش وثنياتهم، وتحطم كبرياءهم،

(٧) انظر: مباحث في علوم القرآن: ٥٢، د. مناع القطان، و: علوم القرآن الكريم: ٥٤، د. عبد المنعم غر، و: دراسات في القرآن والحديث: ٥٩، د. يوسف خليف، و: تأملات قرآنية: بحث منهجي في علوم القرآن الكريم: ٣٨، موسى بن إبراهيم الإبراهيم.

(٨) علوم القرآن الكريم: ٦١، د. عبد المنعم غر.

وتُسفه أحلامهم، وتضرب الأمثال، وتسوق لهم قصص الأولين السابقة عظة وذكرى لهم، لذا فالفاظ القرآن الكريم في العهد المكي «شديدة القرع على المسامع، تقذف حروفها شرر الوعيد، وألسنة العذاب، فكلا الرادعة الزاجرة، والصاخبة والقارعة والغاشية والواقعة، وألفاظ الهجاء في فواتح السور، وآيات التحدي في ثنائها، ومصير الأمم السابقة، وإقامة الأدلة الكونية، والبراهين العقلية، كل هذا تجده في خصائص القرآن المكي». (٩)

ومما تقدم يتبين أن العلماء حينما ذكروا خصائص الآيات المكية: الموضوعية، والأسلوبية، وكذلك مجالات هذه الآيات، وموضوعاتها فقد كان تحت نظرهم ومنطلقهم في هذا حال القوم الذين نزلت عليهم هذه الآيات، ومن هنا جاءت خصائص العهد المكي منبثقة من هذا الواقع، ومنطلقة منه، فكانت هذه الخصائص مرآة تعكس حال هؤلاء القوم، وتبين واقعهم أتم بيان.

فما خصائص هذه الآيات المكية في حديث القرآن عن القرآن، وبما انفردت به عن الآيات المدنية في هذا المجال؟ مَنْ يتأمل حديث القرآن عن القرآن يجد أن أكثر تلك الآيات مكية، فأكثر حديث القرآن عن القرآن نازل في مكة، وليس ثمة مقارنة في هذا بين المكي والمدني، فالمكي يزيد عليه بكثير، ولعل السبب في هذا أمران :

الأمر الأول: أن هذه الكثرة في حديث القرآن عن القرآن في العهد المكي نتيجة طبيعية للفترة التي قضاها النبي (ﷺ) في مكة والمدينة، فمكة تزيد على المدينة في هذا، فقد قضى النبي (ﷺ) في مكة ثلاث عشرة سنة بعد البعثة، بخلاف المدينة فقد قضى فيها عشر سنوات بعد الهجرة، وقد أدى هذا التفاوت بين المرحلتين إلى تفاوت عدد الآيات كثرة وقلة بين المكي والمدني في حديث القرآن عن القرآن.

(٩) مباحث في علوم القرآن: ٥٢، الشيخ: مناع القطان .

الأمر الثاني: وهو الأهم في هذا: أن القرآن الكريم من أكثر الموضوعات التي طال حوله نقاش المشركين، وكثر جدالهم فيه، فما أكثر ما تطاول عليه القوم، وافترخوا فيه الافتراءات العظيمة، كما حكى الله ذلك عنهم في كتابه، فقد أرخوا لألستهم العنان في هذا، وتقولوا فيه، وأطلقوا التهمة تلو الأخرى فيه، فهو - كما زعموا - شعر وسحر، كما أنه إفك مفترى، وهو - أيضاً - أساطير الأولين، فقد أبدى المشركون فيه وأعادوا، ابتغاء صدّ الناس عنه، وتنفيرهم منه، والخط من شأنه، والتنقص من قدره، بيد أن الله - سبحانه وتعالى - منزل هذا الكتاب - تولى الرد عليهم، والدفاع عن رسوله (ﷺ) مبلغ كتابه، فقد بين - سبحانه - حقيقة هذا الكتاب، كاشفاً عن مصدره، وأهدافه، ذاكراً خصائصه وما تفرد به، التي بسببها باين القرآن كلام البشر أجمعين، بل وبسببها عجزوا عن معارضته والإتيان بمثله، ولهذين السببين كثر الحديث في العهد المكي عن القرآن، بل صار هذا الموضوع سمة بارزة للآيات المكية.

وقد أدت هذه السمة البارزة أحد الباحثين^(١٠) إلى دراسة استقرائية لورود لفظة (الوحي) في القرآن الكريم، فبين أن هذه اللفظة - والمراد بها وحي الله إلى أنبيائه - وردت في القرآن إحدى وسبعين مرة، بصيغ مختلفة، وهذه المواضع واردة كلها في العهد المكي، ماعدا ثلاثة مواضع منها فقط، اثنتان منهما في سورتي (آل عمران والنساء) وهما مدينتان باتفاق، والثالثة في سورة (الرعد) المختلف فيها بين المكي والمدني، وقد قادته هذه النتيجة إلى القول بأن الحديث عن الوحي في القرآن يكاد يكون ملمحاً خاصاً من ملامح الآيات المكية الخاصة بهذه الحقبة.^(١١)

وفي كثرة ورود لفظة (الوحي) بصيغها المختلفة في العهد المكي تأكيد وتقرير لمصدر القرآن، فهو وحي منه - سبحانه - نازل من عنده على رسوله (ﷺ)، وفي هذا

(١٠) وهو الدكتور: السيد عبدالمقصود جعفر.

(١١) انظر: مقدمة في خصائص الخطاب القرآني بين العهدين المكي والمدني: ٥١، د. السيد عبدالمقصود جعفر.

ردّ على كثير من افتراءاتهم، ودحض لكثير من أقوالهم وشبهاتهم التي تزعم أن القرآن إفك مفترى، اختلقه محمد (ﷺ) من عند نفسه، ومن ثم نسبّه إلى الله.

وثمة ملحظ آخر في الآيات المكية، وهو أن لفظة (مَجْنُون) وردت في القرآن إحدى عشرة مرة، ولفظة (سَاحِر) وردت فيه اثنتي عشرة مرة، ولفظة (شَاعِرٌ) وردت فيه أربع مرات، ولفظة (كَاهِن) وردت فيه مرتين، ومن العجب في هذا أن جميع الآيات التي وردت فيها هذه الأوصاف جميعها آيات مكية^(١٢)، ولا يخفى دلالة ورود هذه الأوصاف في العهد المكي، كما لا تخفى - أيضاً - علاقة هذه الظاهرة بالقرآن الكريم، فقد أراد المشركون من إطلاق هذه الأوصاف على رسول الله (ﷺ) تشويه صورته وسمعته، لتنفير الناس منه، وصدّهم عن اتباعه والإيمان به، ولم يكن هذا الأمر مقصوداً لذاته، بل أراد المشركون من هذه المزاعم والافتراءات أن يتوصلوا من خلالها إلى صد الناس عن القرآن، والحيلولة دون الإصغاء إليه، والاستماع له، فضلاً عن الإيمان به، والإقبال عليه، وذلك أن في تشويه صورته (ﷺ)، والزعم أنه مجنون وساحر وكاهن وشاعر، فإن في هذا تشويهاً للقرآن أيضاً، فأنى لهذا الرجل - وهذه نعوته، وتلك أوصافه - أن يزعم أن هذا القرآن وحي من الله أنزله عليه، وأمره أن يجهر به.

ومن الخصائص الموضوعية للآيات المكية في حديث القرآن عن القرآن: أن هناك أسماء للقرآن وأوصافاً لم ترد إلّا في العهد المكي فقط دون المدني، بل إن أكثر أسماء القرآن وأوصافه لم ترد إلّا في العهد المكي، ومن هذه الأوصاف: مبارك^(١٣)،

(١٢) كما استقرأ هذا وذكره الدكتور السيد عبد المقصود، انظر: مقدمة في خصائص الخطاب القرآني: ٢٣٨، ثم أشار إلى أن اتهام الرسول (ﷺ) بأنه ساحر ومجنون لم يكن مقصوداً على رسول الله (ﷺ)، فقد وُجّهت هذه التهمة أيضاً إلى الأنبياء السابقين كذلك، بخلاف كونه كاهناً أو شاعراً فلم تُوجه هذه التهمة إلّا إلى رسول الله (ﷺ) من بين سائر الأنبياء، ثم ذكر أن هذا الملحظ « من دقائق القرآن، حيث كان الشعر والكهانة فنّين متميزين في البيئة العربية خاصة، وكان للكهان والشعراء منزلتهم المعروفة في هذه البيئة، فكان تمييز الرسول (ﷺ) بهذين الاتهامين نابغاً بالتالي من تميز بيئته بهذين الفنين ». (مقدمة في خصائص الخطاب القرآني: ٢٤٠).

(١٣) ورد هذا الوصف في أربعة مواضع من القرآن: في سورة الأنعام: ٩٢، ١٥٥، وفي سورة الأنبياء: ٥٠، وفي سورة ص: ٢٩.

وبلاغ^(١٤)، والحكيم^(١٥)، والشفاء^(١٦)، وعزيز^(١٧)، وعظيم^(١٨)، والنبأ^(١٩)، وعلي^(٢٠)، وكريم^(٢١)، ومجيد^(٢٢)، وبصائر^(٢٣)، ورحمة^(٢٤)، والروح^(٢٥)، ووصفه بالقول^(٢٦)، وصفه بكلمة الله، وكلمات الله، وكلام الله^(٢٧)، وغيرها. ولورود هذه الأسماء والأوصاف في العهد المكي بهذه الكثرة عدة دلالات وإيحاءات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بخصائص حديث القرآن عن القرآن في العهد المكي، ومن أبرز هذه الدلالات دالتان: دلالة عامة، ودلالة خاصة مستوحاة من دلالة ذلك الوصف، ونابعة منه.

فأما الدلالة العامة من ورود هذه الأوصاف في العهد المكي: فإن فيها تأكيداً وتقريباً لما سبق ذكره من أن أكثر حديث القرآن عن القرآن نازل في العهد المكي، وفي هذا إشارة إلى حال القوم مع القرآن، وموقفهم منه، وما هم فيه من الإعراض عنه، والتكذيب به، ورميهم له بكل فرية ونقيصة، كما أن في ذكر القرآن وأوصافه وتعدادها عليهم بياناً لهم بحقيقة القرآن، وكشفاً لما أودع الله فيه من الخصائص والمزايا التي باين بها كلام البشر شعراً ونثراً.

- (١٤) ورد هذا الوصف في ثلاثة مواضع من القرآن: في سورة إبراهيم: ٥٢، وفي سورة الأنبياء: ١٠٦، وفي سورة الأحقاف: ٣٥.
 (١٥) ورد هذا الوصف في أربعة مواضع من القرآن: في سورة يونس: ١، وفي سورة لقمان: ٢، وفي سورة يس: ٢، وفي سورة الزخرف: ٤.
 (١٦) ورد في ثلاثة مواضع من القرآن: في سورة يونس: ٥٧، وفي سورة الإسراء: ٨٢، وفي سورة فصلت: ٤٤.
 (١٧) ورد هذا الوصف مرة واحدة في القرآن: في سورة فصلت: ٤١.
 (١٨) ورد هذا الوصف في ثلاثة مواضع من القرآن: في سورة الحجر: ٨٧، وفي سورة ص: ٦٧، وفي سورة عم: ٢.
 (١٩) ورد هذا الوصف في موضعين من القرآن: في سورة ص: ٦٧، وفي سورة عم: ٢.
 (٢٠) ورد هذا الوصف مرة واحدة في القرآن: في سورة الزخرف: ٤.
 (٢١) ورد هذا الوصف مرة واحدة في القرآن: في سورة الواقعة: ٧٧.
 (٢٢) ورد هذا الوصف في موضعين من القرآن: في سورة ق: ١، وفي سورة البروج: ٢١.
 (٢٣) ورد هذا الوصف في ثلاثة مواضع من القرآن: في سورة الأنعام: ١٠٤، وفي سورة الأعراف: ٢٠٣، وفي سورة الجاثية: ٢٠.
 (٢٤) ورد هذا الوصف في اثني عشر موضعاً: في سورة الأنعام: ١٥٧، وفي سورة الأعراف: ٥٢، ٢٠٣، وفي سورة يونس: ٥٧، وفي سورة يوسف: ١١١، وفي سورة النحل: ٦٤، ٨٩، وفي سورة الإسراء: ٨٢، وفي سورة النمل: ٧٧، وفي سورة العنكبوت: ٥٤، وفي سورة لقمان: ٣، وفي سورة الجاثية: ٢٠.
 (٢٥) ورد هذا الوصف في ثلاثة مواضع من القرآن: في سورة النحل: ٢، وفي سورة غافر: ١٥، وفي سورة الشورى: ٥٢.
 (٢٦) ورد هذا الوصف في ستة مواضع من القرآن: في سورة المؤمنون: ٦٨، وفي سورة القصص: ٥١، وفي سورة الحاقة: ٤٠، وفي سورة المزمل: ٥، وفي سورة الطارق: ١٣، وفي سورة التكويد: ١٩.
 (٢٧) ورد هذا الوصف في خمسة مواضع من القرآن: في سورة الأنعام: ١١٥، وفي سورة التوبة: ٦، وفي سورة الكهف: ٢٧، ١٠٩، وفي سورة لقمان: ٢٧.

كما أن في ذكر هذه الأوصاف دعوة لهم إلى الإيمان به، والإقبال عليه، والكف عن تنقصه، والصد عنه وتكذيبه، كما أن في ذكر هذه الأوصاف وتعدادها عليهم توبيخاً لهم، وإنكاراً عليهم، وذلك أن من حق هذا القرآن - وهذه أوصافه - أن يُقبلوا عليه، ويؤمنوا به، لا أن يكون موقفهم منه الإعراض والتكذيب والصد.

كما أن في ذكر هذه الأوصاف تعجباً من حالهم، ورداً لكثير من مزاعمهم وافتراءاتهم، إذ كيف يكون القرآن - وهذه أوصافه - سحراً وشعراً، كما يزعمون ذلك، وأنى له - وهذه نعوته - أن يكون إفكاً مفترى، أو أساطير الأولين؟!

فكان في ذكر هذه الأوصاف وتعدادها عليهم دعوة لهم أن يقفوا مع أنفسهم، وأن ينظروا في حقيقة القرآن من خلال هذه الأوصاف ودلالاتها ليتبين لهم خطل رأيهم، وسفاهة قولهم، وعظم مزاعمهم وافتراءاتهم في القرآن العظيم، فإن وقفوا مع أنفسهم ونظروا في هذه الأوصاف واعتبروا فهذا هو المؤمل فيهم، والمتنظر منهم، وإلا فإن في ذكر هذه الأوصاف وتعدادها عليهم، وتكرار ذكرها إغذاراً لهم، وإقامة الحجة عليهم، فقد بينت لهم حقيقة القرآن، وذكرت لهم أوصافه، ولكن غلبت عليهم شقوتهم، وقادتهم شهواتهم وأهواؤهم إلى ما فيه ضلالهم وخزيهم في الدنيا والآخرة.

وأما دلالة هذه الأوصاف الخاصة: فهي نابعة من إحياءات كل وصف على حدة، من خلال النظر في السياق الذي ورد فيه، والنظر كذلك في الغرض الذي جاءت لتحقيقه، وينبغي أن يُعلم أن دلالة كل وصف من هذه الأوصاف - وإن تفرد كل واحد منها بدلالة معينة خاصة به - إلا أنها تجتمع كلها وتتضافر فيما بينها لتلتقي مع تلك الدلالات العامة، والإحياءات المتقدمة التي سبق ذكرها وفي هذا غنية لذكر دلالة كل وصف على حدة.

هذه بعض الخصائص الموضوعية في حديث القرآن عن القرآن في العهد المكي،
وثمة خصائص أسلوبية لهذه الآيات في هذا العهد المكي، ومن أبرزها ما يأتي :

فواتح السور :

من المعلوم أن حسن الابتداء من الأهمية بمكان، فهو من المواضع التي ينبغي للمتكلم أن يتأنق بها، وأن يتروى فيها، وأن يسعى جهده في أن تكون أعذب لفظاً، وأحسن سبكاً، وأصح معنى^(٢٨)، وأن تكون مناسبة لمضمون ما بعدها، ممهدة له خير تمهيد.

وقد تحدث البلاغيون في هذا وأطنبوا، وهو ما يسمى ببراعة الاستهلال، أو حسن المطالع، ولا غرو أن يكون له هذه الأهمية، وذلك أنه «أول ما يقرع السمع، فإن كان كما ذكرنا أقبل السامع على الكلام، فوعى جميعه، وإن كان بخلاف ذلك أعرض عنه، ورفضه، وإن كان في غاية الحسن»^(٢٩).

وقد انفرد القرآن وتميز بحسن فواتحه، وبهاء مطالع سورته، فكانت تلك الفواتح والمطالع تملك على السامع لبه، وتجعله يُصغي ويتقرب متلهفاً ما سيأتي بعدها، وقد تجلت هذه الخاصية، وبرزت بروزاً جلياً في حديث القرآن عن القرآن، ومن أبرز هذه الفواتح ما يلي :

الحروف المقطعة :

يكاد يكون الاستفتاح بهذه الحروف سمة بارزة للخصائص الأسلوبية للعهد المكي، وذلك أن جميع السور التي بدأت بهذه الحروف - وعددها تسع وعشرون سورة - مكية، ما عدا سورتي البقرة وآل عمران - وهما مدنيتان باتفاق - وسورة الرعد المختلف فيها بين المكي والمدني.

(٢٨) انظر: الإيضاح: ٤ / ١٤٨ .

(٢٩) المصدر السابق: ٤ / ١٤٨ .

وقد أفردتُ الحديث عن هذه الحروف في كتاب مستقل، ذكرتُ فيه حكمها وأسرارها^(٣٠)، والحديث عنها في هذا الكتاب من حيث علاقتها بالعهد المكي، وبيان سرّ توافرها بهذه الكثرة، في هذه الفترة من حديث القرآن عن القرآن. كما بينتُ في ذلك الكتاب علاقة هذه الحروف بإعجاز القرآن، وتحديه لهم بأن يأتوا بمثله، ومن ثم فإن ذكر هذه الحروف في العهد المكي تأكيد لإعجاز القرآن، وبيان أنهم لن يأتوا بمثله أبداً ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، ففي هذه الحروف شاهد على عجزهم وقصورهم عن معارضة القرآن والجري في مضماره، والسير في ميدانه. كما أن في هذه الحروف في هذه الفترة ردّاً على كثير من أقاويلهم وافتراءاتهم، ودحضاً لها، فإذا كان القرآن - كما يزعمون - إفكاً مفترى جاء به محمد (ﷺ) من عند نفسه واختلقه، فلماذا يحجمون عن الإتيان بمثل هذا القرآن، بل ويعجزون عن معارضته، وهو من جنس كلامهم، ومؤلف منه؟! فإذا عجزوا بعد هذا كله تبين بطلان مزاعمهم وافتراءاتهم، فلم يكن القرآن إذن إفكاً مفترى، ولا سحراً ولا شعراً، بل هو قرآن مجيد، أنزله - سبحانه - على رسوله لينذرهم به، وليعلموا أنما هو إله واحد، ومن هنا فقد ناسب ورود هذه الحروف في الفترة المكية إشارة إلى هذه المعاني كلها، تقريراً لها وتثبيتاً.

وأما ورود الحروف المقطعة في بعض السور المدنية فكأن في هذا - والله أعلم - امتداداً لإعجاز القرآن، وتحديه للناس أجمعين على اختلاف أجناسهم، وتباين مللهم ونحلهم، وإعلاماً لهم أن عجز غيرهم عجز لهم أيضاً، فلينقادوا ويسلموا، يدل على هذا المعنى أن كانت السورتان اللتان وردت فيهما الحروف المقطعة من أوائل ما نزل بالمدينة.

(٣٠) انظر: كتابي: (الحروف في القرآن الكريم: أنواعها، وبلاغتها).

بل ويؤكد هذا المعنى - أيضاً - ويقرره أن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٢٣﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ (البقرة - ٢٣-٢٤)، آخر آية نزلت من آيات التحدي، فكأن في هذا إشارة إلى أن إعجاز القرآن وتحديه لهم، وعجزهم عن الإتيان بمثله أمر قد تقرر وحُسم فما عليهم إلا الإيمان به، والإقبال عليه، ليخلصوا أنفسهم ورقابهم من النار التي أعدها الله للكافرين.

١ - الافتتاح بالحمد:

فقد أفتتحت خمس سور من القرآن بالحمد كلها سور مكية، وهذه السور هي: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر، والمتأمل لفواتح هذه السور يجد أن الله - سبحانه وتعالى - يحمد نفسه الكريمة، ويُعظم ذاته الشريفة على أمر عظيم، لا يُقدر قدره، ولا يستطيعه أحد سواه. ^(٣١) والذي يخصنا من هذه السور في هذا المقام سورة الكهف، فقد أفتتحت بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ١﴾ فِيمَا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ٢﴾ مَكْثِينَ فِيهِ أَبَدًا ٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ٤﴾ (الكهف: ١-٣)، ولا يخفى أن حمده - سبحانه - يانزال هذا الكتاب دلالة على عظم القرآن، وبيان لعلو قدره، ورفيع منزلته، ففيه دعوة من طرف خفي إلى الإيمان به، والإقبال عليه، كما أن فيه تشنيعاً على كفار قريش، وإنكاراً عليهم، وتعجباً منهم ومن حالهم وموقفهم من القرآن، كيف يكفرون به، ويعرضون عنه وهو بهذه المكانة، وتلك المنزلة؟!!

(٣١) انظر: مقدمة في خصائص الخطاب القرآني: ١٦٠.

٢ - الافتتاح بالاستفهام :

وقد افتتحت ست سور من القرآن بالاستفهام، وهذه السور هي: الإنسان، النبأ، والغاشية، والشرح، الفيل، الماعون، وهذه السور كلها مكية، ما عدا سورة (الإنسان) فمختلف فيها بين المكي والمدني.

ولا يخفى أثر هذا الأسلوب، وما يلقيه في النفس من شتى التساؤلات والاستفهامات، والذي يعيننا من هذه السور، سورة (النبأ)؛ وذلك لاستفتاحها بالاستفهام عن حال القوم مع القرآن، في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۚ عَنِ النَّبَاِ ۚ الْعَظِيمِ ۚ﴾ ^(١) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ^(٢) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ^(٣) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ^(٤) ﴿١﴾

(النبأ - ١-٥)، جاء هذا الاستفهام الإنكاري التعجبي ليقف القوم، ويلفت نظرهم إلى حالهم وموقفهم من القرآن الكريم، فما الذي دعاهم إلى التساؤل عنه، والاختلاف فيه، وماذا تضمن هذا القرآن، وماذا جاء فيه حيث يناصبونه هذا العداء، وينفرون منه كل هذا النفور، ويعرضون عنه؟ أسئلة متعددة شتى جاء بها الاستفهام ليلقيها في نفس كل واحد منهم، لعلهم يدركون عظيم جرمهم، وسوء صنيعهم، وشناعة موقفهم من القرآن الكريم، ومن هنا جاء الأسلوب الاستفهامي في هذه الآيات المكية في حديث القرآن عن القرآن إشارة إلى هذه المعاني كلها تأكيداً وتقريراً.

ومن الخصائص الأسلوبية في هذا العهد المكي في حديث القرآن عن القرآن

١- قوة الأسلوب المكي وجزالته، وذلك لوجود كثير من أدوات الردع والزجر والتهديد والتقريع، ومن أبرز هذه الأدوات وروداً في هذا العهد، في حديث القرآن عن القرآن: لفظة (كَلَّا) الدالة على تلك المعاني كلها، ومن أسرار القرآن في استخدامه لهذه الأداة، أن هذه اللفظة على كثرة ورودها فيه - وقد وردت فيه ثلاثاً وثلاثين مرة - لم ترد إلا في العهد المكي، حتى صار ورود هذه اللفظة في أي سورة من أكبر الدلائل على مكيته، يدل على هذا قول مكي بن أبي طالب عن هذه الأداة: «لم تقع في القرآن إلا في سورة مكية؛ لأن التهديد والوعيد أكثر ما نزل بمكة، لأن أكثر عتو المشركين وتجبرهم كان بمكة، فإذا رأيت سورة فيها (كَلَّا) فاعلم أنها مكية».^(٣٢)

وقد وردت هذه الأداة في حديث القرآن عن القرآن في العهد المكي، وقد وُظفت دلالتها في مواجهة القوم والإنكار عليهم في موقفهم من القرآن، فما أكثر ما قرعت أسماعهم الآيات والنذر، وهُدِّدوا بها تشنيعاً عليهم وإنكاراً وتوبيخاً لعلهم ينزجرون عما هم فيه من الإنكار والإعراض عن القرآن، لذا فينبغي حين النظر في دلالة هذه اللفظة، وكثرة ورودها ينبغي النظر إلى السياقات والمناسبات التي تأتي فيها، فقد ناسب عتو كفار قريش وجبروتهم وغطرستهم قرعهم بهذه القوارع والزواجر التي تنبههم إلى سوء صنيعهم، وخطل رأيهم، وفساد موقفهم من القرآن.

وثمة أداة أخرى في القرآن الكريم، تفيد تلك المعاني التي تفيدها لفظة (كَلَّا)، بل وتزيد عليها بما فيها من دلالة على الإضراب والانتقال من موضوع إلى آخر، تلك الأداة هي (بَلْ) المفيدة للإضراب، فتكاد تكون هذه الأداة سمة بارزة

(٣٢) شرح كلا وبلى ونعم والوقف على كل واحد منهن في كتاب الله عز وجل: ٢٣، لمكي بن أبي طالب القيسي.

للخصائص الأسلوبية في العهد المكي، ولا يخفى سرُّ ورود هذه الأداة في العهد المكي، وأثرها في السياق الذي ترد فيه.

وقد وردت هذه الأداة في حديث القرآن عن القرآن كثيراً، وذلك لما تتضمنه من معاني الإنكار والزجر والتهديد والوعيد، فضلاً على ما فيها من دلالة على الإضراب عن مقولاتهم واقتراءاتهم في القرآن إلى بيان ما هم عليه من الإنكار والإعراض عنه، وبيان ما ينتظرهم من العذاب الشديد جزاء كفرهم بآيات ربهم، وإعراضهم عنها.

وحين نتبع السياقات التي وردت فيها هذه الأدوات في حديث القرآن عن القرآن نجد أن هذه الأداة - بما فيها من دلالات وإيحاءات - ترتبط ارتباطاً جلياً ومباشراً « بالمواجهات والمجادلات بين الخصوم حيث يُضرب كل طرف عن آراء غيره ليدلي بما يراه صحيحاً، أو ليمعن في إثبات رأيه، ولا بد - بالطبع - أن يكون إضراب صاحب الحق في هذه المواجهات أظهر وأكثر ».^(٣٣)

ولعل هذا هو السر في ورود هذه الأداة في هذه الآيات في العهد المكي، فما أكثر المواجهات والمجادلات التي تمت بين الفريقين حول القرآن، فهذا يأتي بحجة وشبهة، وذلك يرد عليها ويُدحضها، ويبين زيفها بأسلوب قوي جزل.

وقد أدت هذه الأدوات - بما فيها من دلالة على الزجر والردع والتهديد والقرع التي تشكل مجتمعة ظاهرة أسلوبية من أبرز خصائص حديث القرآن عن القرآن في العهد المكي - أدت هذه الظاهرة إلى خاصية أخرى من الخصائص الأسلوبية للعهد المكي قل أن تجد من يتحدث عن خصائص الآيات المكية إلا ويشير إلى هذه الظاهرة ويؤكد عليها، والتي تبرز بروزاً واضحاً وقوياً في حديث القرآن عن القرآن.

٢- قَصَر السور المكية وآياتها، وقوة إيقاعها وجرسها، وقَصَر مقاطعها، وتتابع فواصلها، وكثرة ورودها.

وسبب هذه الظاهرة الأسلوبية أن أهل مكة أرباب فصاحة وبيان، فكان من

(٣٣) مقدمة في خصائص الخطاب القرآني: ١٣٧.

المناسب معهم . والحالة هذه - الإيجاز والاقتضاب ، دون الإسهاب والإطناب ، ولأن المقام مقام زجر وتهديد ، وتخويف ووعيد ، وهذا كله يحتم قصر الآيات ، وقوة وقعها وجرسها .^(٣٤)

كما أن حال هؤلاء المشركين وموقفهم من الرسول (ﷺ) يستدعي هذا الأسلوب ، فقد كانوا يتفننون في إيذاء النبي (ﷺ) ، ومن آمن معه ؛ بغية صدهم عن هذا الدين الجديد ، ومن هنا كان معظم هذا القسم في الزجر والوعظ ، وهذا كله يستدعي العبارات الموجزة ذات الجرس القوي ، والمعنى الذي يستولي على مشاعرهم ، ويهز كيانهم ، فهذا هو الملائم لحالهم ، الذي يتناسب مع مواقفهم من رسول الله (ﷺ) ، ومن أتباعه .

فضلاً على أن هذه الظاهرة الأسلوبية تتناسب مع مواقفهم من الدعوة بعامة ، ومن القرآن بخاصة ، فقد كانوا معاندين مستكبرين ، معرضين عن القرآن كافرين به ، بل كانوا لا يريدون سماعه ولا الإصغاء إليه ، ونادوا باللغو فيه ، ولذا فقد كان موقفهم من الدعوة ، ومن الذي جاء بها ، ودعاهم إليه سبياً في قصر هذه الآيات والسور ، وفي قوة عباراتها ، وشدة إيقاعها ، وفي كثرة الفواصل فيها وتنوعها .^(٣٥) لذا فقد كان وقع هذه الآيات على الأذن قوياً شديداً ، فقد كانت تصخُّ أذانهم ، ويشتد وقعها عليهم ، وقرعها لهم ، فكانت تبعث الرهبة والخشية ، وتشعر بالجلال والعظمة والجبروت ، فتهتز مشاعرهم ، وتسيطر عليها ، وتقذف الرعب في قلوبهم وتصعقها ، حتى كان المشركون مع ما طُبعوا عليه من غلظة الأكباد ، وجفاء الطبع إذا تليت عليهم هذه الآيات خافوا وفزعوا ، وفروا من أمامها :

﴿ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ۖ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ۖ ﴾ (المدر - ٥٠ - ٥١) ، وتجعلهم في حيرة من أمرهم ، ودهشة مما يسمعون من القرآن^(٣٦) ، هذا كله بسبب قوة هذه الآيات ، وشدة وقعها ، وقصر آياتها وسورها .

(٣٤) انظر: التعريف بالقرآن والحديث: ٥٨، محمد الزفراف، و: علوم القرآن الكريم: ٦١، د. عبدالمعزم عمر.

(٣٥) انظر: دراسات في علوم القرآن الكريم: ١٤٧، د. فهد الرومي.

(٣٦) انظر: دراسات في القرآن والحديث: ٦٦.

وقد أخذ حديث القرآن عن القرآن النصيب الأوفى من هذه الظاهرة، فقد برز فيه هذا الأسلوب بروزاً واضحاً جلياً، وذلك لعظم كفر هؤلاء القوم، وشدة إعراضهم عن القرآن، فما أكثر ما أنكر عليهم القرآن موقفهم من القرآن، وشنع عليهم في ذلك موبخاً، وهذا كله يستلزم هذا الأسلوب القوي الجزل ويستدعيه. وفي مجيء الآيات بهذا الأسلوب القوي دعوة لهم إلى الوقوف مع أنفسهم، والنظر في حالهم مع القرآن، وموقفهم منه، وأن يُعاودوا النظر في القرآن، ويقبلوا عليه، لعلهم أن يتبينوا حقيقته، ويعرفوا قدره وشأنه، وأن يكفوا عن تكذيبه، والإعراض عنه، وإلا فقد بلغهم هذا الكتاب، وقامت عليهم الحجة، وبلغتهم قوارعه ونذره.

٣- بروز ظاهرة التوكيد بروزاً واضحاً جلياً، فيكاد يكون التوكيد سمة بارزة لهذه الآيات في العهد المكي، وذلك لما في طيات التوكيد من التقرير والتثبيت، فقد وظف القرآن هذا التوكيد بشتى أنواعه وصوره في حديثه عن القرآن لبيان مكانة القرآن، وإظهار شرفه، وعلو قدره، والكشف عن مصدره بالإخبار بإنزال الله له. ولعل سبب بروز التوكيد في هذه الآيات في العهد المكي ما كان عليه القوم من الجحود والإنكار، وشدة الكفر والإعراض عن القرآن، فلم يكن يحسن. والحالة هذه - مجيء آيات القرآن وسوره مجردة من التوكيد، والخبر - كما يقول البلاغيون - يجب تأكيده إذا كان المخاطب به منكراً، وحسبك بكفار قريش إنكاراً للقرآن، وإعراضاً عنه.

كما أن بروز التوكيد في هذه الآيات في العهد المكي يُعد توظيفاً من القرآن لهذا الأسلوب لما فيه من دلالات وإيحاءات لدى المتكلم به والمخاطب، كما يُعد هذا الأمر استثماراً لبلاغة التوكيد ومنزلته لدى من خُوطبوا به، فقد عرف العرب للتوكيد قدره ومنزلته، فلم يكونوا يؤكّدون من الأخبار إلا ما كان ذا شأن وقدر، وقد نزل القرآن بلسان عربي مبين، ووفق طرائق العرب وأساليبها^(٣٧)، ومن هنا جاء

(٣٧) انظر: من علوم القرآن: ١٦٤، د. فؤاد على رضا.

التوكيد بهذه الكثرة في العهد المكي، دلالة على هذه المعاني كلها، وإشارة إليها.

٤- كثرة ورود الاستفهام في هذه الآيات المكية، والعجيب في هذا الاستفهام في هذه الآيات أنه قلَّ أن يُقصد به حقيقة الاستفهام، فلم يأت على بابه إلا نادراً، وكثيراً ما كان يأتي لغرض الإنكار والتوبيخ والتعجب، فما أكثر ما أنكر القرآن على كفار قريش موقفهم من القرآن، وكفرهم به، موبخاً لهم، ومتعجباً من حالهم مع القرآن، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء - ١٠)، وقوله: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (الأنبياء - ٥٠)، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون - ٦٨)، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت - ٥١)، وقوله: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ (النجم - ٥٩)، وقوله: ﴿أَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهَبُونَ﴾ (الواقعة - ٨١)، فهذه الآيات وغيرها نجدها كلها في العهد المكي.

والتأمل لهذه الاستفهامات كلها يجد أنها جاءت توبيخاً وإنكاراً لموقف كفار قريش من القرآن، فلا غرو في بروز هذه الظاهرة الأسلوبية، فقد جاء هذا الاستفهام متوافقاً كل الموافقة لما كان عليه القوم من الجحود والإنكار، كما جاء مبيناً حالهم مع القرآن، كاشفاً لها.

٥- كثرة ورود أسلوب القصص، فمن يتأمل هذه الآيات، وينعم النظر فيها يجد أن القصص يبرز فيها بروزاً جلياً فيها، ولعل السبب في ذلك هو: قوة هذا الأسلوب، لما يتضمنه من نفي وإثبات في وقت واحد، لذا فلهذا الأسلوب حضوره ووجوده في المواجهات والمنازعات والخصومات.

واللافت للنظر في كثرة ورود هذا الأسلوب في هذه الآيات أنه أكثر ما

يأتي بطريق النفي والاستثناء، ولا يخفى دلالة هذا الأمر وإيحائه، وذلك أن هذا الطريق يأتي في المواضع التي يكثر حولها الإنكار والشك لدى المخاطب، وفي هذا دلالة على أن القرآن، وما يتعلق به من الأمور التي كثر حوله شكهم، وطال فيه جدالهم.

ويعقب هذا الطريق وروداً في هذه الآيات من طرق القصر، القصر بـ (إِنَّمَا) التي من شأنها أنها تأتي في الأمور المتفق عليها من قبل الطرفين، التي لا نزاع فيها ولا خلاف، ولعل السر في كثرة ورود القصر في هذه الآيات، وفي هذا الطريق خاصة هو أن القرآن حينما يتحدث عن القرآن فإنه يذكر قضايا مسلّمة لا يُثار حولها نقاش ولا جدال، فمن حقها أن تُتلقى بالقبول والإذعان، بيد أن كفار قريش - لعتوهم وشدة إنكارهم - يجعلون هذه القضايا المسلمة مثار جدل ونزاع ونقاش، بل وإنكار وإعراض وجحود، وأي كفر أعظم وأشنع من أن يُجردوا عن القرآن أوصافه وخصائصه التي خصّه الله بها، وأودعها فيه، ثم لا يُثبتون له إلا أنه سحر وشعر، وأنه إفك مفترى، افتراه محمد (ﷺ) من عند نفسه، أو هو أساطير الأولين اكتبها فهي تُملَى عليه بكرة وأصيلاً، ومن ثم يأتي القصر في حديث القرآن عن القرآن إشارة إلى هذه المعاني كلها، ودلالة عليها، ودحضاً لها، ورداً عليها.

وفي ختام ذكر هذه الخصائص الأسلوبية للعهد المكي في حديث القرآن عن القرآن تجدر الإشارة إلى أن القرآن قد وظّف هذه الخصائص لأداء معانيه، وتحقيق أغراضه، في بيان حقيقة القرآن، وذكر خصائصه وصفاته، وكذلك لإظهار ما عليه القوم من الكفر والتكذيب والإنكار، فجاءت الخصائص الأسلوبية بناء على تطلّب السياق لها، واقتضاءً لمقام بلاغتها، ووفاءً بحقها.

فلم تكن هذه الخصائص الأسلوبية - كما هو الشأن في القرآن كله - مقصودة لذاتها، كما أننا حين نقف مع هذه الخصائص ونأملها ندرك ما كان عليه القوم من شدة الإعراض والإنكار للقرآن الكريم، والكفر به وبمن جاء به، فقد ناسب هذا الإنكار

وذلك الإعراض أن يأتي حديث القرآن معهم في هذا العهد بهذا الأسلوب .
كما أن بعض هذه الخصائص الأسلوبية ليست خاصة بحديث القرآن عن القرآن في هذه الفترة، بل إن بعضها من السمات العامة للعهد المكي، ولا غضاضة في هذا، وذلك أن الحديث عن القرآن - كما تقدم ذكره - قد أخذ ساحة واسعة من تلك الفترة، فكان من أكثر الموضوعات حديثاً وتطرقاً، ومن ثم جاء حديث القرآن عن القرآن مطبوعاً بخصائص هذا العهد، آخذاً بنصيب وافر منها.

المبحث الثاني خصائص الآيات المدنية

المبحث الثاني: خصائص الآيات المدنية

حتى تتبين خصائص الآيات المدنية الموضوعية والأسلوبية في حديث القرآن عن القرآن، لا بد أن ننظر - أولاً - في حال المجتمع المدني الذي نزلت عليه هذه الآيات، وخطوب بها، فما ملامح هذا المجتمع؟ وما السمة الغالبة فيه؟ وما الذي طرأ وتغيّر على هذه الجماعة المسلمة، وعلى الدعوة في هذه الفترة الزمنية في المدينة بعد الهجرة إليها من مكة؟

ملامح المجتمع المدني:

بعد هجرته (ﷺ) إلى المدينة، وبعد أن آخى بين المهاجرين والأنصار، وبعد أن تألفت القلوب وتآخت، وبعد أن قويت الأواصر والروابط بين أفراد هذا المجتمع، وبعد أن اتحد الهدف الذي يسعون إليه، والمنهج الذي يسرون عليه، بعد هذا كله تكونت هذه الجماعة المسلمة، والدولة الفتية، ومن ثم فقد نزل القرآن في هذه الفترة يُرسي قواعد هذا المجتمع، ويشد من عضده وأزره، ويأخذ بيده، ويُبين له الشرائع والأحكام، وأصول الدين وفروعه التي آمن بها هذا المجتمع، وأخذ بها. (٣٨)

ومما ينبغي التنبه له ونحن نتحدث عن المجتمع المدني : الإشارة إلى طائفتين ظهرت في هذه الفترة، وعاشت مع الجماعة المسلمة وعاشتها، إذ كان لهاتين الطائفتين أثر في حديث القرآن عن القرآن في هذه الفترة، فقد ذكر القرآن حالهم مع القرآن، وبين موقفهم منه.

الطائفة الأولى: المنافقون الذين حال الإسلام بينهم وبين رغباتهم وشهواتهم، فأظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، وأضمرُوا لهذا الدين العدا والكيد والحقد والبغض.

الطائفة الثانية: اليهود الذين كانوا يسرحون ويمرحون في المدينة قبل هجرة الرسول (ﷺ) إليها، ودخول أهلها في الإسلام، كما كانوا يُثيرون الفتن والحروب بين طوائف العرب وقبائلها، فلما جاء الإسلام، واجتمع الناس عليه،

(٣٨) انظر: علوم القرآن الكريم: ٧٠، و: دراسات في علوم القرآن الكريم: ١٤٨.

وتآلفت القلوب فيه وتآخت، وبعد أن قويت شوكة هذا الدين، وارتفعت رايته أكل الحقد قلوبهم على الدين الجديد، وأضمروا له الشر والحقد، فعاهدوا الرسول (ﷺ) ولكنهم نقضوا ونكثوا، وكانوا يتحينون الفرص لنقض العهود مع المسلمين والقضاء عليهم. (٣٩)

إذن فهذه هي أبرز ملامح المجتمع المدني، وهذه سماته، فقد اختلف الحال بين العهدين، فالظروف هنا غير الظروف التي كانت هناك، والمخاطبون هنا غير المخاطبين هناك، وقد نزل القرآن في هذه الفترة وفق مقتضى هذا الحال الجديدة، فقد اقتضت حكمة الله البالغة - وهو الحكيم الخبير، منزل هذا الكتاب - أن تكون الآيات التي تخاطب المشركين في مكة مغايرة تماماً لطابع الآيات التي تخاطب المسلمين في المدينة، ومن كان معهم. (٤٠)

والذي يخصنا في هذا المقام خصائص الآيات المدنية في حديث القرآن عن القرآن الموضوعية والأسلوبية، فما خصائص هذه الآيات بعد أن عرفنا سمات هذا المجتمع، والواقع الذي يعيش فيه، والظروف التي تحيط به؟

الخصائص الموضوعية للآيات المدنية في حديث القرآن عن القرآن:

لا بد أن يُعلم قبل ذكر هذه الخصائص الموضوعية أن الحديث عن القرآن في العهد المدني جاء امتداداً للحديث عنه في العهد المكي، ومتمماً له، ومحققاً - كذلك - لكثير من أغراضه وأهدافه، فقد كان الحديث في كلا العهدين عن أسماء القرآن وأوصافه، وعن وجوب الإيمان به، والإقبال عليه، والزجر والنهي عن تكذيبه والإعراض عنه، كما جاءت الآيات في كلا العهدين مبينة ثواب من يؤمن به، ويقبل عليه في الدنيا والآخرة، وجزاء - كذلك - من يعرض عنه، ويكفر به في الدنيا والآخرة.

(٣٩) انظر: في علوم القرآن دراسات ومحاضرات: ٥٥، د. محمد عبد السلام كفاقي، والأستاذ: عبدالله الشريف.

(٤٠) انظر: في علوم القرآن الكريم: ٧٢.

يؤكد هذا الأمر ويقرره أن هناك كثيراً من أسماء القرآن وأوصافه وردت في كلا العهدين في حديث القرآن عن القرآن، ومن هذه الأوصاف: الفرقان^(٤١)، والنور^(٤٢)، والهدى^(٤٣)، والموعظة^(٤٤)، والعربي^(٤٥)، والمبين^(٤٦)، وغيرها. فقد وردت هذه الأوصاف في كلا العهدين، وإن كانت تتفاوت في ورودها هنا وهناك قلة وكثرة، ولا يخفى دلالة هذا الأمر، وما يشير إليه، وذلك أن أكثر هذه الأوصاف التي تكرر ذكرها في كلا العهدين أوصاف ثابتة للقرآن، لازمة له، لا تنفك عنه مهما كان حال المخاطب.

كما أن كثيراً من هذه الأوصاف لا غنى للناس جميعاً عنها المؤمنين والكافرين، فهم دائماً وأبداً بحاجة إليها؛ للانتفاع بها، والإفادة منها، فما أحوج الناس جميعاً إلى الموعظة والنور، وإلى الحق والفرقان، فمن كان مؤمناً فيزداد بها إيماناً وبصيرة، ومن كان كافراً فإن له بها عوناً. بعد الله - على دخولهم في هذا الدين، وإلا فقد قامت عليهم الحجة.

يدل على أن حديث القرآن عن القرآن جاء في هذه المرحلة امتداداً لحديثه عنه في العهد المكي: الحروف المقطعة، فهي وإن كانت سمة بارزة في حديث القرآن عن القرآن في العهد المكي إلا أنها وردت في العهد المدني أيضاً، دلالة على هذا المعنى، وتأكيداً عليه.

(٤١) ورد هذا الوصف في ثلاثة مواضع في القرآن: في سورة البقرة: ١٨٥، وفي سورة آل عمران: ٤، وفي سورة الفرقان: ١ (٤٢) ورد هذا الوصف في أربعة مواضع في القرآن: في سورة النساء: ١٧٤، وفي سورة المائدة: ١٥، وفي سورة الأعراف: ١٥٧، وفي سورة الشورى: ٥٢.

(٤٣) ورد هذا الوصف في ثمانية عشر موضعاً: في سورة البقرة: ٢، ٩٧، ١٨٥، وفي سورة آل عمران: ١٣٨، وفي سورة الأنعام: ١٥٧، وفي سورة الأعراف: ٥٢، ٢٠٣، وفي سورة يونس: ٥٧، وفي سورة يوسف: ١١١، وفي سورة النحل: ٦٤، ٨٩، ١٠٢، وفي سورة النمل: ٧٧، وفي سورة لقمان: ٣، وفي سورة الزمر: ٢٣، وفي سورة فصلت: ٤٤، وفي سورة الجاثية: ٢٠.

(٤٤) ورد هذا الوصف في أربعة مواضع في القرآن: في سورة آل عمران: ١٣٨، وفي سورة يونس: ٥٧، وفي سورة هود: ١٢٠، وفي سورة النور: ٣٤.

(٤٥) ورد هذا الوصف في عشرة مواضع في القرآن: في سورة يوسف: ٢، وفي سورة الرعد: ٣٧، وفي سورة النحل: ١٠٣، وفي سورة طه: ١١٣، وفي سورة الشعراء: ١٩٥، وفي سورة الزمر: ٢٨، وفي سورة فصلت: ٣، وفي سورة الشورى: ٧، وفي سورة الزخرف: ٣.

(٤٦) ورد هذا الوصف في تسعة مواضع في القرآن: في سورة المائدة: ١٥، وفي سورة يوسف: ١، وفي سورة الحجر: ١، وفي سورة الشعراء: ٢، وفي سورة النمل: ١، وفي سورة القصص: ١، وفي سورة يس: ٦٩، وفي سورة الزخرف: ٢، وفي سورة الدخان: ٢.

يدل على هذا ويؤكدده - أيضاً :- أن آيات التحدي، والأمر بمعارضة القرآن، والإتيان بمثله وردت في العهد المدني، بل وُخِّمَتْ به، وذلك في قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٢٢﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴿البقرة - ٢٣ - ٢٤﴾ ، ومع هذا فثمة خصائص موضوعية خُصت بها الآيات المدنية في حديث القرآن عن القرآن، ولعل من أبرزها:

أن هناك أوصافاً للقرآن الكريم لم ترد إلا في العهد المدني، وهذه الأوصاف هي : وصف القرآن بأنه، حبل الله ^(٤٧)، وبرهان ^(٤٨)، ومهيم ^(٤٩)، فهذه الأوصاف وإن كانت قليلة إلا أن لها دلالتها وارتباطها بالسياق الذي وردت فيه، وحال القوم الذين نزلت عليهم هذه الآيات المتضمنة لتلك الأوصاف .

فقد ناسب أن يُذكر وصف القرآن بأنه (حبل الله) في العهد المدني، إذ يحسن ذكر هذا الوصف، والأمر بالاعتصام به بعد بيان حال القوم، وما هم عليه من الفرقة والاختلاف، وبعد ذكر ما كانوا عليه من حروب وعداء، ولم يتم اجتماع المؤمنين واتحاد كلمتهم وتآلفهم وتأخيهم إلا في العهد المدني، بعد أن تكوّنت دولتهم، واشتد عودهم، وارتفعت رايّتهم، فيحسُن الآن - والحالة هذه - الأمر بالاعتصام، والالتفاف حول القرآن؛ لأنه حبل الله الذي أنقذهم، وخلصهم مما كانوا عليه من ويلات وحروب .

وأما ورود وصف القرآن بأنه (بُرْهَنٌ) فلعل السرّ في هذا - والله أعلم - أن هذه الجماعة التي تكوّنت بحاجة إلى دلائل ومناير تسير على هداها، وتقتفي أثرها،

(٤٧) ورد هذا الوصف مرة واحدة في القرآن، في سورة آل عمران: ١٠٣ .

(٤٨) ورد هذا الوصف مرة واحدة في القرآن، في سورة النساء: ١٧٤ .

(٤٩) ورد هذا الوصف مرة واحدة في القرآن، في سورة المائدة: ٤٨ .

وتأخذ بيدها، في سيرها إلى ربها، ومواجهتها لأعدائها، وحسبك بالقرآن بصيرة ودليلاً في هذا كله، وبرهاناً نيراً من رب العالمين للاهتداء به، ولعل مما يؤيد هذا كون السورة التي ورد فيها هذا الوصف - وهي سورة النساء - من أوائل السور التي نزلت في المدينة، والله أعلم بأسرار كتابه.

وأما وصف القرآن بأنه (مُهِيمٌ) فلا تخفى دلالة هذا الوصف، وسرُّ وروده في العهد المدني في حديث القرآن عن القرآن؛ وذلك أن هذا الوصف وارد في سياق مخاطبة أهل الكتاب في أمرهم بالإيمان بالقرآن، وعدم تكذيبه أو الكفر به، وذلك أن كون القرآن مهيمناً على ما تقدمه من الكتب من الأمور الموجبة للإيمان به وتصديقه من قبل أهل الكتاب، فكثيراً ما يأتي هذا الوصف في سياق حث أهل الكتاب على الإيمان بالقرآن، وبيان موقفهم منه، وأكثر الآيات التي تتحدث عن أهل الكتاب آيات مدنية؛ وذلك لكون اليهود من الطوائف التي عاشت بجانب المؤمنين في هذا العهد، وكان لوجودهم فيها الأثر الفاعل سلباً وإيجاباً، فكان من الطبيعي في هذا نزول كثير من الآيات في حديث القرآن عن القرآن عنهم، وبيان موقفهم من القرآن، وعن نزل عليه القرآن.

ومن الخصائص الموضوعية في حديث القرآن عن القرآن في العهد المدني: أن المتأمل لهذه الآيات الممعن النظر فيها يجد:

كثرة الحديث فيها عن أهل الكتاب، وبيان موقفهم من القرآن، وقد كان لوجودهم الأثر الفاعل فيمن حولهم، وليس العجب في كثرة ورود الحديث عنهم، بل إن بعض الآيات المكية كانت تذكر موقف أهل الكتاب من القرآن، ولكن العجب في هذا أننا حين نتأمل الآيات التي نزلت في المدينة حول موقف أهل الكتاب من القرآن نجد أن هذه الآيات تُنكر عليهم موقفهم من القرآن، وتُوبخهم عليه، وتتعجب من موقفهم من القرآن أشد العجب، مبينة قبح هذا الموقف منهم، وشناعته وبشاعته.

ففي حديث القرآن عن القرآن في العهد المدني نجد كثيراً من الآيات تأمر أهل الكتاب بالإيمان بالقرآن الذي جاء مصداقاً لما معهم، كما نهوا فيها - أيضاً - عن اشتراء هذه الآيات بالثمن القليل، وما أكثر ما نهوا عن لبس الحق بالباطل، وعن كتمان الحق، وكم أخبر - سبحانه - في هذه الآيات أنهم يُحرفون الكلم عن مواضعه، وأنهم يحرفون كلام الله من بعد ما سمعوه وعقلوه، وكم أخبر عنهم بأنهم جعلوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، وغير هذا كثير وكثير، فمن ينظر في سورتي: البقرة وآل عمران - وهما مدنيتان - يدرك مصداق هذا القول، والشاهد عليه، ففيهما كثير من الآيات التي تحدثت عن موقفهم من القرآن، وإنكار ذلك الموقف عليهم.

هذا بالنسبة إلى الآيات المدنية في حديثها عن موقف أهل الكتاب من القرآن، وأما الآيات المكية في حديثها عن موقف أهل الكتاب من القرآن، فقد تحدثت - أيضاً - عن موقفهم من القرآن ولكن من زاوية أخرى، ولغرض آخر مغاير للغرض الذي وردت من أجله الآيات المدنية - وهذا لعمرى سر من أسرار القرآن الكريم، ووجه من أوجه إعجازه - وبيان ذلك: أن القرآن في حديثه عن القرآن حين يذكر موقف أهل الكتاب منه في العهد المكي فإنه يذكر موقفهم في معرض المدح والثناء عليهم بإيمانهم بالقرآن الكريم، وإقبالهم عليه، وبكائهم مما جاء فيه، فكان القرآن يذكر هذا كله في العهد المكي، وكان يقصد من ذكر هذه المواقف توبيخ كفار قريش، والإنكار عليهم، والتسفيه لهم، من خلال موقفهم من القرآن، ومن خلال كفرهم به، وإعراضهم عنه.

فكأنه يقول لهم - موبخاً ومنكراً -: كيف تكفرون بالقرآن، وقد نزل عليكم أنتم، وكيف يكون هذا حالكم وشأنكم معه وقد أنزل عليكم القرآن ليخرجكم من الظلمات إلى النور؟! فكيف بعد هذا كله تتمادون في غيكم، وتتوغلون في جحودكم وعنادكم؟!، ثم يذكر لهم بعد هذا موقف أهل الكتاب من القرآن، فكأنه يقول لهم: انظروا إلى موقف هؤلاء الحميد الرشيد من القرآن فكونوا مثلهم، كما أن في هذا دلالة صريحة على أنه - سبحانه - غني عنهم، ولا يضره

كفرهم وعنادهم، كما لا ينفعه إيمانهم.

وحسبك شاهداً على هذا الآيات التي وردت في سورة (الإسراء): ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٥٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ ﴿٥٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ ﴿٥٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ ﴿٥٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ ﴿٥٩﴾

(الإسراء - ١٠٥-١٠٩)، والآيات التي وردت في سورة (القصص): ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفقُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٥٥﴾

(القصص - ٥١-٥٥)، والآية التي وردت في سورة (سبا): ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ﴿١﴾

(سبا-١)، هذه السور الثلاث مكيات كلها، وقد ورد فيهن بيان موقف أهل الكتاب من القرآن، والحديث فيها موجه لكفار قريش، فتأمل بلاغة القرآن العظيم، كيف راعى أحوال المخاطبين المختلفة في هذا الآيات، وكيف خص كل قوم بما يناسب حالهم، ويتلاءم مع موقفهم من القرآن، وكيف وظف هذا الأمر لتحقيق أغراض القرآن وأهدافه في حديثه عن القرآن، في كلا العهدين المكي والمدني على حد سواء.

ومن الخصائص الموضوعية - أيضاً - في حديث القرآن عن القرآن في العهد المدني: أن لفظة (الإعراض) وردت في القرآن كثيراً، وقد وردت لمعان متعددة، ولأغراض شتى، ولكن العجيب في هذه اللفظة - وهذا ما يخصنا في هذا المقام من خلال حديث القرآن عن القرآن في العهد المدني - أنها جاءت في مقامين مختلفين، ولغرضين مغايرين. ^(٥٠)

المقام الأول: جاءت بمعنى: الإعراض قبل الإيمان.

والمقام الثاني: جاءت بمعنى الإعراض بعد الإيمان.

وقد وردت هذه اللفظة بهذين المعنيين كثيراً في القرآن، والعجب في هذا - وهو سرٌّ من أسرار القرآن العظيم - أن جميع الآيات التي تدل على الإعراض قبل الإيمان جميعها نزلت في العهد المكي، ما عدا آية واحدة نزلت في العهد المدني ^(٥١)، كما أن جميع الآيات التي تدل على معنى الإعراض بعد الإيمان جميعها نازلة في العهد المدني. ^(٥٢)

ولهذا الملحظ دلالة في حديث القرآن عن القرآن في كلا العهدين: المكي والمدني، وذلك أن في هذا الملحظ إشارة إلى موقف القوم - على اختلاف مشاربهم، وتعدد أجناسهم - مع القرآن وبيان لحالهم معه.

فقد كان طبع كفار قريش، وديدنهم الصد والرفض والإعراض، فقد أعرضوا عن القرآن، ولم يقبلوا عليه ألبتة، فهذا هو موقفهم الثابت نحو القرآن، ولم يتزحزحوا عنه قيد أئمة، وهو امتداد لما كانوا عليه من الكفر والجحود والإنكار، بل هو الموقف المظنون بهم أن يكونوا عليه؛ بسبب ما طُبعوا عليه من العتو والغطرسة

(٥٠) وقد أدرك هذا الملحظ الدكتور السيد عبدالمقصود جعفر، وجعل هذا الملحظ من خصائص الآيات المدنية (انظر: مقدمة في خصائص الخطاب القرآني: ٢٨٧).

(٥١) ومن هذه الآيات: الإسراء: ٨٣، ٦٧، والكهف: ٥٧، وطه: ١٠٠، ١٢٤، والسجدة: ٢٢، وفصلت: ٤، ٥١، ١٣، والشورى: ٤٨، والقمر: ٢، والأنعام: ٤٣، ٣٥، والأنفال: ٢٣، والأنبياء: ١، ٤٢، ٢٤، والمؤمنون: ٧١، وص: ٦٨، والأحقاف: ٣، والشعراء: ٥، ويس: ٤٦، والمدثر: ٤٩، وغيرها.

(٥٢) ومن هذه الآيات: البقرة: ٨٣، وآل عمران: ٢٣، والتوبة: ٧٦، والنور: ٤٨، وغيرها.

والعناد، فدأبهم دائماً وأبداً الإعراض.

وأما في العهد المدني فقد استخدم القرآن هذه اللفظة لمعنى آخر مغاير للمعنى السابق لها، وذلك مراعاة لأحوال المخاطبين بها، ووفقاً للأجواء التي نزلت فيها تلك الآيات، والظروف المحيطة بها، ولتعدد الطوائف في العهد المدني.

ففي المدينة أهل الكتاب، وقد عرفوا - من خلال كتبهم السابقة - حقيقة القرآن ومصداقيته، فإن كفروا بعد ذلك وكذبوا به فقد أعرضوا عنه بعد الإيمان به، فهو إعراض منهم بعد إقبال، وكفر به بعد إيمان.

كما أن في هذا المجتمع المدني المنافقين، وقد عرفوا الحق وسمعوه، فقد سمعوا الآيات وهي تُتلى غضة طرية من قبل رسول الله (ﷺ) والمؤمنين، فقد كانوا يحضرون مجالسهم، ويشهدون معهم المشاهد، فهم إن استمروا على هذا النفاق، فقد أعرضوا بعد إقبال، وكفروا بعد إيمان.

كما أن ذكر الإعراض في هذا العهد بهذا المعنى تحذير للمؤمنين من الكفر بالقرآن والإعراض عنه بعد الإيمان به، والإقبال عليه، كما أن فيه تحذيراً لهم من الركون إلى هاتين الطائفتين (اليهود، والمنافقين) والتأثر بهم، فيضلونهم، ومن ثم يعرضون عن القرآن بعد الإقبال عليه، ويكفرون به بعد إيمانهم.

ومن هنا جاء ذكر لفظة (الإعراض) بهذا المعنى في العهد المدني؛ وذلك لمناسبتها لأحوال المخاطبين بها، ومن هنا تتجلى بلاغة القرآن العظيم، ودقائق تعابيره، في توظيفه لهذه الخصائص في حديثه عن القرآن في كلا العهدين المكي والمدني، كل بما يناسب حاله، ويتلاءم مع موقفه من القرآن، ومع ما ينسجم مع الظروف المحيطة بهذه الفترة، ومع أغراض القرآن التي يسعى لتحقيقها، والوصول إليها في هذه المرحلة الزمنية والمكانية من مراحل الدعوة.

الخصائص الأسلوبية للآيات المدنية في حديث القرآن عن القرآن:

وبجانب الخصائص الموضوعية لحديث القرآن عن القرآن في العهد المدني فثمة خصائص أخرى أسلوبية لهذه الآيات في هذه الفترة، تضافرت جميعاً لإبراز مكانة القرآن، وبيان موقف الناس منه، وحالهم معه. ومن أبرز هذه الخصائص ما يلي :

١- أن أكثر آيات حديث القرآن عن القرآن في العهد المدني تتسم بهدوء عباراتها، ولين أسلوبها، ورقة خطابها، وقد أدى هذا كله إلى لطف إيقاع هذه الآيات وهمسها، وإلى طول فواصلها. (٥٣)

ولا غرو أن تبرز هذه الخاصية الأسلوبية في حديث القرآن عن القرآن في هذه الفترة، وقد عرفنا حال القوم الذين تنزلت عليهم هذه الآيات، فقد كان حالهم مقتضياً هذا الأسلوب، ومستوجباً له، وذلك أن المخاطبين بهذه الآيات مؤمنون بما نزل في هذا الكتاب، وبمن أنزله، وبالذي نزل عليه، فقد تشربت شرايين هذا المجتمع حب الله ورسوله، وحب كلامه، فكان همّ الواحد منهم أن يأتيه أمر من الله ورسوله ليبادر في تنفيذه، ويبذل في ذلك النفس والنفيس في تحقيقه تقرباً إليه - سبحانه -، ونصرة لدينه.

وكذلك فقد كان من تنزل عليهم هذه الآيات يترقبون شوقاً ولهفة لكل ما ينزل عليهم من القرآن، ويُقبلون عليه، وينصتون إليه، وكأن على رؤوسهم الطير. (٥٤)

فليس المقام - وهذا حال القوم - مقام مقارعة وخصام، ومن هنا كان أسلوب هذه الآيات هادئاً، وخطابها رقيقاً، ومن ثم فلا تكاد تجد في أسلوب هذه الآيات عبارات عنيفة، أو قوية مجلجلة، ولا صوراً تثير الفزع والرهبة، فليس ثمة ما يدعو إلى هذا كله، فلم يكن القوم على ما كان عليه كفار قريش من الجحود والعناد،

(٥٣) انظر: دراسات في القرآن والحديث: ٦٩.

(٥٤) انظر: دراسات في علوم القرآن: ١٤٩.

ولهذا كله فقد اختفت في هذه الفترة في حديث القرآن عن القرآن أساليب القرع والزجر والتهديد والوعيد، فلم ترد فيه لفظة (كَأَنَّ) في حديث القرآن عن القرآن، بل ولا في الآيات المدنية كلها، وكذلك قلت أساليب التوكيد والقسم في هذه الآيات ؛ إذ ليس ثمة ما يدعو إلى وجود مثل هذه الأساليب ؛ إذ لم يكن هناك تردد ولا شك من المؤمنين لهذه الآيات التي تتحدث عن القرآن ، فضلاً أن يكون هناك جحود لها أو إنكار.

٢- وقد أدت هذه الخصائص الأسلوبية في حديث القرآن عن القرآن في العهد المدني إلى ظهور خاصية أخرى من خصائص هذا الأسلوب في حديث القرآن عن القرآن، بل وفي الآيات المدنية كلها، فقد سلكت الآيات في حديثها عن القرآن في هذه الفترة مسلك الإطناب والإسهاب، وأصبح طول الآيات والسور في هذه الفترة سمة بارزة من سمات الآيات المدنية، بما في ذلك حديث القرآن عن القرآن. وقد كانت هذه نتيجة طبيعية لطبيعة ذلك المجتمع، إذ إن طول الآيات والسور مما يتناسب مع بسط الأحكام التشريعية، والتفصيلات الجزئية لكثير من مسائل العبادات والمعاملات التي جاء بها الدين الجديد، فضلاً على أن النفوس في هذا المجتمع لديها الاستعداد لتلقي أصول هذا الدين وفروعه، وهذا كله يستدعي البسط في القول، والإطناب فيه. ^(٥٥)

كما أن وجود اليهود في المدينة مما يدعو إلى هذا الأسلوب ويحتمه، وذلك أنهم على علم بالكتب السابقة، ودراية فيها، فهم بحاجة - والحالة هذه - إلى محاورة ومجادلة، وبسط القول معهم، وتكراره، وقد أشار الجاحظ إلى هذه الخاصية الأسلوبية في الآيات المدنية في قوله « ورأينا أن الله - تبارك وتعالى - إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل، أو حكى عنهم جعله مبسوطاً، وزاد في الكلام ». ^(٥٦)

(٥٥) انظر: دراسات في علوم القرآن: ١٤٩.

(٥٦) الحيوان: ١ / ٩٤، لأبي عمرو بن بحر الجاحظ.

فلعل في هذا الأسلوب ما يدعو أهل الكتاب إلى أن يعاودوا النظر في موقفهم من القرآن، وأن يتبينوا سوء صنيعهم معه وقبحه، فينزعوا ويقلعوا عن لبس الحق بالباطل، وعن كتمان الحق، وعن نبذهم كتاب الله وراء ظهورهم، كما أن ظهور المنافقين في هذه الفترة يدعو إلى الإطنباب معهم في الحديث، وبسطه واتساعه، وتكراره، والمعاودة فيه.

فهاتان الطائفتان: اليهود والمنافقون لا يجدي معهم الخطاب القرآني المكبي الموجز المقتضب، إنما يلائم هاتين الطائفتين نوع آخر من الخطاب، فهم بحاجة إلى خطاب يُبسط القول فيه لمناقشة مزاعمهم، ورد حججهم ودحضها، وإقامة الحجة عليهم، وليبان خبيثة نفوسهم، وسوء ما انطوت عليه من الخبث والمكر، والالتواء والدهاء. ^(٥٧)

وهذا ما نراه واضحاً جلياً في حديث القرآن عن القرآن حين يخاطب اليهود أو المنافقين في بيان موقفهما من القرآن توبيخاً وإنكاراً، ولا عجب من أن تبرز هذه الخاصية الأسلوبية في حديث القرآن عن القرآن مع هاتين الطائفتين؛ وذلك أن قضية كل واحد منهما « ليست في نقص العلم، ولا حتى في غفلة القلوب، وإنما هي في فساد القلوب ذاتها، أو موتها بعد أن تكررت منها مواقف الإنكار بعد الإقرار، والنكوص بعد الإقدام، والإخلاف بعد الإبرام ». ^(٥٨)

ومع وجود هذه الظاهرة وبروزها إلا أن هناك آيات في حديث القرآن عن القرآن نزلت في العهد المدني حين نتأملها، ونصغي إليها نجد شدة لهجتها، وقوة خطابها، وشدة قرعها وزجرها، وحين نتأمل موضوعات هذه الآيات ذات الإيقاع القوي، والجرس الرنان نجد أن هذه الآيات - غالباً - ما تكون في خطاب أهل الكتاب، توبيخاً لهم على موقفهم من القرآن، وبياناً لحالهم معه، وما هم عليه من كتمان الحق، ولبسه بالباطل، واشترائهم به الثمن القليل، وجعل آيات الكتاب

(٥٧) انظر: مقدمة في خصائص الخطاب القرآني: ١٧٣.

(٥٨) مقدمة في خصائص الخطاب القرآني: ١٧٢.

وراء ظهورهم، فلا يناسب خطاب هؤلاء - وهذا موقفهم - إلا شدة الخطاب، وقوة العبارة، وشدة قرعها وجرسها، علمهم أن ينزجروا عما هم عليه، ويقبلوا على القرآن، ويتركوا الإعراض عنه.

ومما أدى إلى ظهور هذا الأسلوب القوي المجلجل في بعض آيات حديث القرآن عن القرآن: وجود المنافقين في هذا المجتمع، والخطاب مع المنافقين له طابعه الخاص الذي يتوافق مع طبيعة نفوسهم، ويتلاءم - كذلك - مع موقفهم من القرآن، وحالهم معه، لذا فكثيراً ما يتجه خطاب القرآن مع هؤلاء في حديثه عن القرآن بالمجابهة والمواجهة معهم، فيكشف خبيثتهم، ويذكر ما تنطوي عليه قلوبهم من الكفر والنفاق، ويبين حالهم مع القرآن حين يُدعون إلى الإيمان به، والتحاكم إليه، وهذا كله مستلزم قوة الخطاب معهم، وشدة لهجته، عسى أن يكون في هذا الأسلوب زجر لهم وراوع عما هم فيه من النفاق.

كما أن هذه الآيات في حديثها عن القرآن كانت تتجه حيناً إلى المؤمنين توبيخاً وتعجباً منهم ومن حالهم مع القرآن، وهم المؤمنون به، فثمة آيات في العهد المدني توبخ المسلمين على عدم تدبرهم للقرآن، وعدم خشوع قلوبهم لقوارعه وزواجره، فما أكثر ما تخاطبهم في هذا بأسلوب قوي مبينة لهم أن الجبال - على عظمتها - لو نزل عليها القرآن الذي نزل عليكم لخشعت وتصدعت، فما بال قلوبكم لا تخشع من القرآن، ولا تتدبره، وهو نازل من عند الله، أم على قلوبكم أقفال حالت بينكم وبين التدبر، والنظر في هذا القرآن والخشوع منه.

وقد تمّ عتاب المؤمنين بأسلوب قوي يجتث القلوب من أماكنها، ليتحقق الغرض من ذلك العتاب، ويجعل هؤلاء المؤمنين يقبلون على القرآن قراءة وتدبراً وخشوعاً وتأملًا، ومن ثم يحصل المراد من نزول القرآن، ويتنفعون به، ويظهرون على أعدائهم، ويعلمون به في الدنيا والآخرة.

والذي أريد أن أخلص إليه من خلال هذا الملاحظ: أنه ينبغي ونحن نذكر ظاهرة

أسلوبية عامة لخصائص الأسلوب المدني في حديث القرآن عن القرآن ألا نغفل عن بعض الخصائص الأسلوبية الأخرى وإن كانت قليلة، لأنها تشكل سمة مهمة لأسلوب هذه الآيات في العهد المدني، كما أن لهذه الظواهر الأسلوبية دلالات وإيحاءات تخدم الغرض، وتبين حال القوم مع القرآن، وتذكر موقفهم منه.

كما أن وجود هذه الطوائف الثلاث في المدينة المختلفة في كل شيء محتتم لهذا الاختلاف في الأسلوب والتباين فيه، فخطاب المؤمنين غير خطاب أهل الكتاب، كما أنه مبين - كذلك - لخطاب المنافقين، فلا بد من ملاحظة هذه الفروق الخفية في الأساليب لدى محادثة كل طائفة من هذه الطوائف الثلاث، التي تميزت كل طائفة عن الأخرى تميزاً واضحاً بيناً.

كما سيتضح هذا الأمر جلياً في الآيات التي ستذكر شواهد على الخصائص الأسلوبية للآيات المدنية في حديث القرآن عن القرآن.

وبعد فتلك بعض الخصائص الأسلوبية لحديث القرآن عن القرآن في العهد المدني، وقد كانت هذه الخصائص سمة بارزة فيها، كما اقتضت طبيعة هذه الفترة الزمانية والمكانية هذه الخصائص، وكما اقتضاها - كذلك - حال القوم الذين عاشوا في هذه الفترة، على تعدد أجناسهم، واختلاف مللهم ونحلهم، فجاء الأسلوب القرآني في حديث القرآن عن القرآن ملائماً لهذه الأجواء كلها، والظروف المحيطة بها، ومتوافقاً كل الموافقة مع من خُوطبوا به، ومن ثم فقد قامت هذه الخصائص بما أنيط بها في إبراز مكانة القرآن الكريم، وإظهار حقائقه وأهدافه، وبيان مصدره، وإنزال الله له، وثواب من آمن به، وأقبل عليه في الدنيا والآخرة، وجزاء من كفر به، وأعرض عنه، وبيان مصيره في الدنيا، والمآل الذي سيؤول إليه في الآخرة.

ومما يجدر التنبيه عليه: أن هذه الخصائص تكاد تكون سمة بارزة للقرآن بعامه في العهد المدني، فجلُّ آياتها انفردت بهذه الخصائص، وتميزت بها، وليس فقط في حديث القرآن عن القرآن، بل حديث القرآن عن القرآن جزء من هذه الآيات،

ومع هذا فإنها لا تنفك عن الطابع العام للخصائص الأسلوبية في العهد المدني .
وقبل أن أطوي صفحة الحديث عن الخصائص الموضوعية والأسلوبية
لكل من العهد المكي والمدني في حديث القرآن عن القرآن، أود أن أشير
إلى أمرين مهمين:

الأمر الأول: أن كثيراً من هذه الخصائص الموضوعية والأسلوبية لكل من
المكي والمدني في حديث القرآن عن القرآن إنما هي خصائص غالبية، وسمة بارزة
في كل واحد منهما، ولا يعني هذا أن خصائص كل عهد مقصورة عليه، وخاصة
به، لا تتجاوزه أبداً إلى العهد الآخر، فلا يعني قولنا مثلاً: إن العهد المكي تتميز
آياته بالشدة، وقوة الخطاب، أنه يخلو من الخطاب الهادي خفيف الوقع والإيقاع،
أو أن الخطاب في العهد المدني تميز بلين الخطاب، وهدوء الإيقاع، لا يعني هذا
خلو آياته تماماً من قوة الخطاب، وشدته ومن التهديد والوعيد، وقل مثل هذا في
جميع الخصائص الأسلوبية لكل من العهدين .

إذ المراد من هذه الخصائص أنها السمة البارزة لهذا العهد، والطابع العام له،
التي تبرز بروزاً واضحاً فيه، ولا تعني انتفاء وجودها في غيره، وإن كان قليلاً،
وهذا كله بالنظر إلى الأجواء المختلفة التي تنزل فيها هذه الآيات. ^(٥٩)

الأمر الثاني: هذه الخصائص الأسلوبية للقرآن الكريم في حديث القرآن عن
القرآن تُعدّ وجهاً من أوجه إعجاز القرآن الكريم، الذي تميز عن أساليب العرب
كلها، بل والبشر أجمعين، فقد تعددت هذه الخصائص الأسلوبية وتنوعت تنوعاً
يلائم طبيعة الموضوعات التي تناولتها كل فترة منها، ويلائم - كذلك - طبيعة الأحوال
والأجواء التي تنزلت فيها تلك الآيات، من حيث المخاطبون بها، والظروف التي
تعيشها الدعوة في تلك الحقبة الزمانية والمكانية .

ومن المعلوم أن لكل موضع حليته اللفظية، وأسلوبه الخاص به، وهذا ما

(٥٩) انظر: علوم القرآن الكريم: ٧٣ .

تجلى في هذه الآيات في حديثها عن القرآن في هذين العهدين، وهذا - لعمري - من أكبر الدلائل والشواهد التي تدل على أن القرآن قد بلغ الذروة في الجمال، والروعة والإشراق، فكان بحق الكتاب المعجز، والبيان الخالد^(٦٠)، وصدق الله : ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء - ٨٨)

(٦٠) انظر: دراسات في علوم القرآن: ٦٥، د. محمد بكر إسماعيل، و: تأملات قرآنية: ٤٢، و: دراسات في القرآن والحديث: ٧٣.

المبحث الثالث
بيان الفروق التعبيرية بين المكي والمدني
من خلال تحليل نصوص لكل منهما

المبحث الثالث: بيان الفروق التعبيرية بين المكي والمدني من خلال تحليل نصوص لكل منهما

في هذا المبحث أتناول بعض الآيات من كلا العهدين المكي والمدني في حديث القرآن عن القرآن؛ لنقف من خلالها على الخصائص الموضوعية والأسلوبية لهذه الآيات التي سبق بيانها والحديث عنها في المبحثين المتقدمين، حتى تتبين الفروق التعبيرية بين آيات هذين العهدين في حديثها عن القرآن.

وقفات بلاغية مع آيات مكية :

من آيات حديث القرآن عن القرآن في العهد المكي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَلَمِينَ ﴿١١٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١١٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١١٦﴾﴾ (الشعراء - ١٩٢-١٩٥)، يذكر - سبحانه وتعالى - في هذه الآيات حقيقة القرآن، مبيناً أنه نازل من عنده، وفي ذكر هذه الحقيقة ردُّ على كثير من مقولاتهم الباطلة، ودحض لكثير من الافتراءات، التي ما فتئوا يوجهونها ضد القرآن الكريم، فإذا كان القرآن نازلاً من عنده - سبحانه - وهو كذلك فلن يكون شعراً ولا سحراً ولا كهانة. ^(٦١)

كما أن في بيان مصدر القرآن رداً على زعمهم بأن محمداً (ﷺ) قد اختلق هذا القرآن من قبل نفسه، أو أنه اكتتبه فهو يُملَى عليه بكرة وأصيلاً.

والضمير في قوله (وَإِنَّهُ) عائد على القرآن، ولم يسبق له ذكر في هذه الآيات، فهو إضمار في مقام الإظهار، وقد حسن الإضمار في هذا المقام حال القوم، وما هم عليه من إنكار للقرآن، وكثرة جدالهم فيه، فلكثرة افتراءاتهم فيه، والتهم التي تلصق به جزافاً، أصبح القرآن بسبب هذا ماثلاً حاضراً، لا ينصرف الذهن إلا إليه، ولا يخطر بالبال سواه، فهم لا يتحدثون إلاَّ عنه، وليس لهم هدف

(٦١) انظر: البحر المحيط: ٧ / ٢٨.

إلا الحديث في القرآن، والخط من شأنه، والتنقص من قدره، فقد جعلوا القرآن غرضاً يرشقونه، ويصوبون إليه سهام افتراءاتهم.^(٦٢)

وفي تأكيد الخبر بـ(إنّ، ولام الابتداء) إشارة إلى حال كفار قريش مع القرآن، وموقفهم منه، وذلك أن في هذا التوكيد إشارة إلى شدة إنكارهم لنزول القرآن من عند الله^(٦٣)، فقد اقتضت حالة القوم وموقفهم من القرآن تأكيد الخبر بهذه المؤكدات، وذلك لتقرير هذه المسألة، ولحسم هذه القضية التي طالما دار حولها نقاشهم فيها ونزاعهم.

وفي الإشارة إلى أن مُنَزَّل القرآن هو (رَبِّ الْعَالَمِينَ) ما يدعو إلى الإيمان بالقرآن وتصديقه، والإقبال عليه؛ وذلك أن فيه دلالة على أن مُنَزَّل القرآن هو ربكم القائم على مصالحكم، المتصرف في شؤونكم كلها، سيدكم ومالك أمركم. كما أن في هذا التعبير إشارة إلى أن إنزال القرآن من أجل الأمور التي أراد - سبحانه - أن يُريهم عليها، وأن يُهذبهم بها، وذلك أن أعظم ما ربي به - سبحانه - خلقه - ولا شك - « إنزال هذا الكتاب الكريم، الذي اشتمل على الخير الكثير، والبرّ الغزير، وفيه من الهداية لمصالح الدارين، والأخلاق الفاضلة ما ليس في غيره ».^(٦٤)

بل إن لذكر ربوبيته للناس أجمعين في هذا المقام في حديث القرآن عن القرآن في العهد المكي دلالة وإيحاء، ففيه ما يحمل المشركين إلى الإيمان بالقرآن وتصديقه، وذلك أن كفار قريش يُقرؤون بهذا التوحيد، ولا يشركون به مع الله أحداً، فقد خاطبهم - سبحانه - بما يؤمنون به ويقرؤون، فعسى أن يكون في تذكيرهم بهذا التوحيد ما يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن، والإقبال عليه، فإن أعرضوا بعد هذا كله

(٦٢) وقد ذكر بعض المفسرين أن هذا الضمير (إنه) عائد على ذكر القرآن في أول السورة التي ورد فيها ذكر إعراضهم عنه وتكذيبهم إياه، فيكون في هذا ربط آخر السورة بأولها، ومناسبة بين خاتمها وما افتتحت به (انظر: البحر المحيط: ٧ / ٣٨، و: التحرير والتنوير: ١٩ / ١٨٨)، ولا يخفى ما في هذا القول من البعد، والأولى - والله أعلم - أن يكون هذا من الإضرار في مقام الإظهار، فهو الذي يتناسب مع غرض الآية، وحال القوم مع القرآن.

(٦٣) انظر: التحرير والتنوير: ١٩ / ١٨٨.

(٦٤) تيسير الكريم الرحمن: ٣ / ٤٨٥.

وكفروا به فقد أقام عليهم الحجة، وأبان زيف دعواهم في إقرارهم بهذا التوحيد. ثم ذكر - سبحانه وتعالى - في قوله : (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ) من قام بإنزال القرآن، وهو جبريل، فتكون هذه الجملة بياناً للجملة التي قبلها، فقد أبانت هذه الآية الكيفية التي نزل بها القرآن، ومن أنزله ^(٦٥)، ومن هنا جاء الفصل بين الجملتين دلالة على هذا المعنى.

وفي نعت جبريل بالأمين بيان لعلو منزلة هذا الملك، فهو ذو مكانة عند الله، مُطاع في الملأ الأعلى، معصوم من كل دنس وخيانة، فلا يزيد في هذا الوحي ولا ينقص ^(٦٦)، وفي هذا دلالة على شرف القرآن، وحفظه بأن نزل به هذا الملك العظيم الذي هذه هي صفاته ونعوته.

ثم بين - سبحانه وتعالى - القرار المكين للقرآن الذي استقرَّ فيه بعد نزوله من عنده في قوله : (عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ)، فقد دلَّ حرف الجر (عَلَى) - بدلالته على الاستعلاء - على تمكن قلب رسول الله (ﷺ) من القرآن، وشدة حفظه له، فقد فهمه (ﷺ) ووعاه، ومن ثم بلغه على أكمل وجه، وعلى مراد الله به. ^(٦٧) وفي مخاطبته - سبحانه - لرسوله (ﷺ) بقوله (قلبك) تشريف له (ﷺ)، وبيان لعلو قدره، ومنزلته عند الله، وفي هذا التشريف له (ﷺ) ما يدعو به إلى القيام بأعباء الدعوة، والنهوض بها وتبليغها على أكمل وجه، وهذا ما كان منه (ﷺ) في تبليغه دعوة ربه، فقد أدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين .

كما دلَّ حرف اللام في قوله (لِتَكُونَ) - بدلالته على التعليل - على الغاية من إنزال القرآن الكريم، وذلك أن قوله : (لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ) متعلق بـ (نَزَلَ) في قوله : (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ) والمتأمل لهذه الآية يجد أنها ذكرت أن الغاية من إنزال القرآن هي الإنذار، مع أن القرآن نزل للإنذار والتبشير على حدٍّ سواء، بيد أن في الاختصار هنا على الإنذار دلالة على حال القوم الذين نزلت

(٦٥) انظر: التحرير والتنوير: ١٩ / ١٨٨ .

(٦٦) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٣ / ٣٨٢ .

(٦٧) انظر: التحرير والتنوير: ١٩ / ١٨٩ .

عليهم هذه الآيات، بل إن المتتبع لحديث القرآن عن القرآن في العهد المكي يجد أنها - غالباً - تقتصر في حديثها على غاية نزول القرآن على الإنذار، فيكاد يكون هذا الملحظ من الخصائص الموضوعية في حديث القرآن عن القرآن في العهد المكي. وفي الاختصار على الإنذار في هذا المقام مطابقة لأحوال المخاطبين بهذه الآيات، وموافقة لطبيعة الدعوة في هذه المرحلة، ومواءمة مع الظروف المحيطة بها، وكشف لطبيعة هذه النفوس التي خُوطبت بهذه الآيات.

كما أن في ذكر الإنذار والاختصار عليه تناسباً مع موقفهم من القرآن، فالإنذار يناسب جحودهم للقرآن، وإعراضهم عنه، وكفرهم بما جاء به، وبمن جاء به، فيكون في هذا الإنذار والاختصار عليه زجر لهم، وقرع لمسامعهم بقوارع القرآن الكريم وزواجه، فهم بحاجة إلى ما يقرع مسامعهم، ويهز كيانه، وينذرهم ويخوفهم بالوعيد والتهديد، لعل وعسى أن يقلعوا عما هم فيه من التكذيب والإعراض، ومن هنا جاء الاختصار على الإنذار في العهد المكي في حديث القرآن عن القرآن إشارة إلى هذه المعاني كلها، وبياناً لحال هؤلاء القوم، وذكراً لموقفهم من القرآن، وبياناً للخطب المحذوق بهم، والخطر المحيط بهم إن استمروا على جحودهم وإعراضهم.

ومن هنا يتبين أن ذكر الإنذار والاختصار عليه في العهد المكي في حديث القرآن عن القرآن كان اقتضاء لحق البلاغة، ووفاء بمقامها، فقد اقتضى المقام هنا هذا الأمر وتطلبه، كما أن في هذا الأمر مراعاة لأحوال المخاطبين بهذه الآيات، وبياناً لموقفهم من القرآن، فتأمل بلاغة القرآن العظيم.

ثم ذكر - سبحانه - أن إنزاله للقرآن الكريم كان باللسان العربي في قوله (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) وقد دل على هذا المعنى وأظهره حرف الجر (الباء) بدلالته على الملابسة. والمعنى: أن القرآن نزل ملابساً للغة العربية، بهذه الألفاظ الفصيحة البينة^(٦٨)،

(٦٨) انظر: التحرير والتنوير: ١٩ / ١٩٠.

وقد أخبر - سبحانه وتعالى - في كتابه - في حديث القرآن عن القرآن - أنه أنزل القرآن بهذا اللسان العربي المبين، فقد ورد هذا الأمر في أحد عشر موضعاً. ^(٦٩)

والعجب في هذا أن هذه الآيات كلها نازلة في العهد المكي في حديث القرآن عن القرآن، ما عدا آية واحدة، مختلف فيها بين المكي والمدني، وهي قوله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ (الرعد - ٣٧). ولهذا الملحظ دلالة وإحاطة في حديث القرآن عن القرآن، فما سر نزول القرآن بهذا اللسان العربي المبين؟ وما السر - أيضاً - في نزول هذه الآيات كلها في العهد المكي؟ هذا ما يجب علينا أن نقف معه ونأمله، ونحن نتحدث عن خصائص حديث القرآن عن القرآن في العهد المكي.

طفق العلماء يذكرون أسرار نزول القرآن بلسان عربي مبين، فبينوا أن نزوله بهذا اللسان قطع لمعاذير كفار قريش، ودفع لعلتهم، ولزجرهم على موقفهم من القرآن، ولإقامة الحجة عليهم، وذلك؛ لئلا يقولوا: إنه أنزله بغير لساننا، فنحن إنما نعرض عنه ولا نسمعه لأننا لا نفهمه، وإنما هو تقرير لهم، وذلك أنه - تعالى ذكره - قال:

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ (الشعراء - ٥٠)

ثم قال: لم يعرضوا عنه لأنهم لم يفهموا معانيه، بل يفهمونها لأنه تنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، بلسان عربي مبين، ولكنهم أعرضوا عنه تكديباً واستكباراً

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (الشعراء - ٦١) ^(٧٠)

ولتأكيد هذه المعاني كلها وتقريرها، وللإمعان في توبيخهم وتوبيخهم على موقفهم من القرآن، ولقطع أعدارهم ومعاذيرهم ووصف هذا اللسان العربي بأنه

(٦٩) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: مادة: عرب .

(٧٠) جامع البيان: ١٩ / ١١٢، للاستزادة في هذا الموضوع، والنظر في حكم نزول القرآن بهذا اللسان العربي المبين وأسراره، انظر: الكشف: ٣ / ١٢٨، و: إرشاد العقل السليم: ٦ / ٢٦٤، و: نظم الدرر: ١٤ / ٩٧، و: فتح القدير: ٤ / ١١٧، و: التحرير والتنوير: ١٩ / ١٩٠، وغيرها.

(مُبين)، ولهذا الوصف دلالة وإيحائه - أيضاً - في هذا السياق، في حديث القرآن عن القرآن، وذلك أن في هذا الوصف تصريحاً أن القرآن الذي نزل بهذا اللسان العربي بين واضح، قاطع للعدر، ومقيم للحجة، ودال كل الدلالة على المحجة^(٧١)، فهو ظاهر الدلالة والمدلول، بين في نفسه، كاشف ما يُراد منه، فما عذرهم بعد هذا؟ وبماذا يتمسكون أو يتذرعون؟ وما الذي يحول بينهم وبين الإيمان به، وتصديقه، والإقبال عليه غير الكفر والإعراض والاستكبار؟ ومن هذا كله يتبين سرُّ نزول القرآن بهذا اللسان العربي المبين.

وأما السرُّ في الإخبار عن نزول القرآن بأنه نازل بلسان عربي مبين في حديث القرآن عن القرآن، في العهد المكي، واختصاصه بذلك دون المدني، فالسرُّ في هذا ظاهر جلي، وذلك أن ذكر هذه الآيات، ونزولها في هذا العهد أنسب لمقام التحدي لهم، والأمر لهم بمعارضة القرآن، والإتيان بمثله، فما الذي يمنعهم من معارضة القرآن، وقد نزل بلسانهم، الذي به يفخرون، وبه يصولون ويجولون، وهم العرب الخُلص الأقحاح.

كما أن فيه دحضاً لكثير من افتراءاتهم ومزاعمهم، فقد ادعوا وافتروا أن محمداً (ﷺ) قد اختلق القرآن من عند نفسه وتقول، فإذا كان الأمر كما يزعمون فما الذي يمنعهم، ويحول بينهم وبين الإتيان بمثل ما جاء به من القرآن؟

ولهذه الأسباب مجتمعة جاء الإخبار عن نزول القرآن باللسان العربي المبين في العهد المكي في حديث القرآن عن القرآن، ولم يرد ذلك في العهد المدني إلا في آية واحدة.

والتأمل لنظم الآية التي نزلت في المدينة والفاظها - وهي قوله - تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ (الرعد - ٣٧)، يجد أن ثمة ارتباطاً ومناسبة بين

نزول هذه الآية في العهد المدني وبين طبيعة تلك المرحلة وظروفها، وذلك أن المتأمل لهذه الآية يجد أن الذي وُصف بالعربي هو الحُكم دون القرآن، وفي هذا مناسبة واضحة وجلية بين هذه الآية وبين المقام الذي نزلت فيه، وذلك أن وصف القرآن بكونه حكماً عربياً يتناسب كل المناسبة مع تشريعات الأحكام وتفصيلاتها، وذكر فروع الدين وشرائعه، فجاء هذا الوصف في هذا المقام ليُبين أن القرآن الذي نزل بهذه الشرائع والأحكام أنه عربي باللسان الذي يتكلمون به ويتخاطبون، وفي هذا ما يدعوههم إلى الإقبال على هذه الأحكام، وتفهمها والنظر في حكمها وأسرارها، ومن ثم العمل بها، وتطبيقها، والأخذ بها، والله أعلم بأسرار كتابه.

نموذج تحليلي لآيات من سورة السجدة :

وفي موضع آخر - ومع حديث القرآن عن القرآن - ينفي - سبحانه وتعالى - عن القرآن الريب، مبيناً أنه نازل من عنده، يقول تعالى: ﴿الْمَٓٔ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝﴾ (السجدة: ١-٣)، في الإخبار عن تنزيله - سبحانه - لهذا الكتاب رد لكثير من افتراءات كفار قريش الباطلة في حق القرآن، فليس ثمة من شك ولا ريب أنه نازل من عنده - سبحانه -، وفي هذا دحضٌ لمزاعمهم، ورد لمقولاتهم، فإذا كان القرآن نازلاً من عند الله - وهو كذلك - فلن يكون سحراً ولا شعراً - كما زعموا -، ولن يكون محمد (ﷺ) كذلك يقول القرآن، وَيَتَخَرَّصُهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ. (٧٢)

وقد جاء الإخبار عن إنزال الكتاب بالجملة الاسمية في قوله (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ) وفي هذا دلالة على ثبوت هذا الأمر ودوامه (٧٣)، وفي دوام هذا الأمر وثباته دوام لانتفاء الريب عنه، كما أن فيه ثباتاً ودواماً لإضفاء نعوت الكمال والجلال للقرآن،

(٧٢) انظر: جامع البيان: ٢١ / ٩٠ .

(٧٣) انظر: التحرير والتنوير: ٢١ / ٢٠٥ .

وفيه - أيضاً - رد على مقولات المشركين في القرآن، ورد - كذلك - على مزاعمهم الباطلة في القرآن، ودحض لها، وبيان بطلانها وزيفها.

وقد جاء الإخبار عن تنزيل القرآن في هذا السياق، في مقام الرد على كفار قريش الذين أنكروا نزول القرآن من عند الله أشد الإنكار، خالياً من أدوات التوكيد مع أن المخاطبين يُنكرون ما تضمنه هذا الخبر ويجحدونه كل الجحود، فقد جاء هذا الخبر على خلاف مقتضى الظاهر، وفي مجيء الخبر خالياً من أدوات التوكيد تهميش لأولئك المنكرين لإنزال الله لهذا القرآن، وعدم اعتداد بهم، ولا اعتراف بوجودهم، فضلاً عن إنكارهم وجحودهم نزول القرآن من عند الله.

وفي هذا دلالة على أن الأمر الذي جاء الخبر بتقريره في غاية الوضوح والبيان، لا يقبل شكاً ولا تردداً، فضلاً عن الإنكار والجحود، وأنى للريب أن يكون فيه وقد نزل من عند الله؟!!

يدل على هذا المعنى ويؤكد - أيضاً - مجيء جملة (لَا رَيْبَ) معترضة بين المبتدأ (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ) والخبر (مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) ولسيد قطب وقفة مع هذه الجملة المعترضة أشار إلى الغرض من مجيئها في هذا السياق، وما انطوت عليه من الحُكم والأسرار، يقول: « وَيُعَجِّلُ السِّياقُ بِنَفْيِ الرِّيبِ فِي مُنتَصَفِ الْآيَةِ، بَيْنَ الْمَبْتَدَأِ فِيهَا وَالْخَبَرِ؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ صُلْبُ الْقَضِيَّةِ، وَالنَّقْطَةُ الْمَقْصُودَةُ فِي النَّصِّ، وَالتَّمْهِيدُ لَهَا بِذِكْرِ هَذِهِ الْأَحْرَفِ الْمَقْطَعَةِ، يَضَعُ الْمُرَاتِبَيْنِ الشَّاكِنِ وَجْهًا لَوْجَهَ أَمَامَ وَاقِعِ الْأَمْرِ، الَّذِي لَا سَبِيلَ إِلَى الْجَدَلِ فِيهِ، فَهَذَا الْكِتَابُ مَصُوغٌ مِنْ جَنْسِ هَذِهِ الْأَحْرَفِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، وَنَمْطُهُ هُوَ هَذَا النَّمْطُ الْمَعْجَزُ الَّذِي لَا يَمَارُونَ فِي إِعْجَازِهِ »^(٧٤).

إذن فليس ثمة من ريب في نزول القرآن من عند الله، ولا مراعاة في هذا الحكم إلى ارتياب أولئك الكفرة فيه، وجحودهم له، فأقوالهم الباطلة في القرآن غير ملتفت إليها، ولا منظور فيها، فضلاً على أن تكون تلك الأقوال والأحكام صادقة أو مؤثرة في القرآن، أو في الذي أنزل عليه القرآن، فليس ثمة ما يدعو إلى

الارتياح في القرآن، أو أن تتعلق به أدنى شائبة من شوائب الارتياح، أو تحوم حوله (﴿سورة﴾)؛ «وذلك لما حفّ بتنزيله من الدلائل القاطعة بأنه ليس من كلام البشر، بسبب إعجاز أقصر سورة منه، فضلاً عن مجموعته، وما عضده من حال المرسل به من شهرة الصدق والاستقامة» (٧٥).

ثم ذكر - سبحانه وتعالى - بعد أن نفى الريب عن القرآن مُنَزَّلَ هذا الكتاب مبيناً أنه نازل (مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) وفي مجيء هذا الوصف له - سبحانه - (مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) دون لفظ الجلالة إحياء في سياق الحديث عن القرآن، وأنه نازل من عند الله، ففيه بيان أن مُنَزَّلَ هذا الكتاب هو ذلك الرب القائم على مصالح هؤلاء العباد، المتصرف في شؤونهم كلها، مالك أمرهم، وسيدهم الذي ربّاهم بنعمته، ومن أعظم ما ربّاهم عليه القرآن، الذي أنزله إليهم، ففيه جميع ما يُصلح أحوالهم، ويُتمم أخلاقهم ويُهذبها (٧٦)، فلماذا - والحالة هذه - يرتابون في القرآن، ويُنكرون إنزال الله له، ويجحدونه؟!

وثمة آية أخرى في كتاب الله نفى فيها الريب - أيضاً - عن القرآن، في قوله : ﴿الْمَ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة - ١-٢) ، وقد وقع اختلاف بين هاتين الآيتين في نظم كل واحدة منهما وفي ألفاظها، بل وحتى في إيقاعها، ولهجة خطابها قوة وضعفاً، وهو اختلاف طبعي؛ وذلك لاختلاف مقام كل واحدة منهما وسياقها، ولاختلاف الغرض الذي سبقت له كل واحدة منهما، الذي جاءت لتحقيقه وتقريره، فالآيتان وإن كان الحديث فيهما عن القرآن إلا أن الأولى منهما في العهد المكّي، والأخرى في العهد المدني، فأخذت كل واحدة منهما الخصائص الموضوعية والأسلوبية للعهد الذي نزلت فيه، ومن هنا جاء الاختلاف بينهما، فالآية التي في سورة (البقرة) نزلت بين ظهراي المسلمين، ومن يُرجى إسلامهم من أهل الكتاب، لذا جاء الحديث فيها عن هداية القرآن للمتقين، وذلك أن وصف

(٧٥) التحرير والتنوير: ٢١ / ٢٠٦ .

(٧٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن: ٣ / ١٢١ .

(المتقين) يناسب تلك الأجواء المؤمنة، فهي التي تعلق بصبائر القرآن، وآمنت به، بخلاف الآية الأخرى في سورة (السجدة) فقد نزلت في العهد المكي في شأن كفار قريش المتعنتين المنكرين، فجاء الخطاب فيها قوياً مزمجراً، متوعداً، فهي تخاطب قوماً مشركين لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر، فهم أصلب عوداً، وأشد كفراً وجحوداً^(٧٧)، فجاء الحديث معهم مناسباً لحالهم، متوافقاً مع موقفهم من القرآن. وبعد أن ذكر - سبحانه - إنزاله للقرآن، ونفي الريب عنه، ذكر بعد ذلك موقف المشركين منه على سبيل الإنكار والتوبيخ في قوله : (أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ) و(أَمْ) هنا للإضراب الانتقالي، فقد انتقل من الحديث عن القرآن وإنزاله إلى بيان موقف المشركين منه، وذكر افتراءاتهم فيه، وزعمهم الباطل بأن محمداً (ﷺ) قد تقوله واختلقه من عند نفسه، فـ (أَمْ) هنا بمعنى بل^(٧٨)، والهمزة فيها للتوبيخ والتفريع، ولإنكار عليهم هذا القول في القرآن، كما أن فيها معنى التعجب، والتشنيع عليهم من هذا الزعم الباطل^(٧٩).

وفي حكاية زعمهم الباطل بالاستفهام التعجبي إشعار بأن هذه المقولة « لا ينبغي أن تُقال، فتاريخ محمد (ﷺ) فيهم ينفي هذه الكلمة الظالمة من جهة، وطبيعة هذا الكتاب ذاتها تنفيه أصلاً، ولا تدع مجالاً للريب والتشكيك »^(٨٠).

وما زاد الأمر شناعة وإنكاراً مجيء هذه الفرية بعد إخباره - سبحانه - بإنزال القرآن، ونفي الريب عنه، وفي هذا الأمر - لو نظروا وتأملوا - ما يرد هذه الفرية، ويدحضها من أصلها، ويقتلع جذورها، ولكن أنى لهم النظر والتأمل وقد أعمى الحقد بصائرهم، وذهب بنور عقولهم؟

جاء الإخبار عن هذه الفرية، وهذا القول الباطل بصيغة المضارع في قوله : (أَمْ يَقُولُونَ) وذلك لاستحضار حالة القوم وهم يطلقون هذه المزاعم جزافاً في

(٧٧) انظر: التحرير والتنوير: ٢١ / ٢٠٥ .

(٧٨) انظر: معاني القرآن وإعرابه: ٤ / ٢٠٣ .

(٧٩) انظر: فتح القدير: ٤ / ٢٤٧ .

(٨٠) في ظلال القرآن: ٥ / ٢٨٠٥ .

القرآن، وفي هذا إظهار لمعنى التعجب من هذا الإضراب، وذلك بجعل صورة هؤلاء القوم ماثلة شاخصة أمام المخاطب بهذه الآيات، كما أن في هذه الصيغة إشارة إلى تجدد هذا القول منهم، وتكرر حدوثه مرة بعد أخرى^(٨١)، وفي هذا مزيد تشنيع عليهم من هذا الافتراء، الذي لا ينقطعون عنه أبداً، بل يعاودونه ويعودون إليه كل حين.

وبعد أن ذكر - سبحانه وتعالى - موقفهم من القرآن، أضرب عنه صفحاً، ذاكرًا حقيقة القرآن الذي ادعوا فيه وافتروا في قوله : (بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)، وهو إضراب إبطالي، والمعنى: ليس الأمر كما قالوا وادعوا في افتراءهم أن محمداً قد اختلق هذا القرآن، بل هو الحق من ربك، فقد كذبهم - سبحانه - في زعمهم هذا، مبيناً أن القرآن الذي قالوا فيه ما قالوا من الافتراءات هو الحق.^(٨٢)

وقد أفاد تعريف الجزأين في قوله (أَلْحَقُّ مِنْ) قصر القرآن على صفة الحق دون عداها، وقد حسن هذا القصر وأوجبه مقام الرد على هؤلاء المشركين، وبيان حقيقة القرآن في معرض الرد عليهم، وبيان زيف دعواهم وافتراءاتهم فيه، وفيمن جاء به.

والجار والمجرور (مِنْ رَبِّكَ) في موضع الحال، والتقدير: بل هو الحق حالة كونه من عند ربك^(٨٣)، وقد تضمن هذا الحال الكشف عن مصدر القرآن، وفي ذلك رد على من زعم أن محمداً (ﷺ) قد افترى القرآن من عند نفسه واختلقه. ولذكر الربوبية في هذا المقام في قوله (مِنْ رَبِّكَ) دلالة في هذا السياق سياق ذكر مزاعم المشركين وافتراءاتهم نحو القرآن والرسول (ﷺ)، وذلك أن في لفظة (رب) إشارة إلى أن مُنزل هذا الكتاب الذي يقولون فيه ما يقولون هو ربك، المحسن إليك، المتصرف في أمورك كلها، وهو حافظك ومؤيدك وناصرك. ولن يخذلك أبداً، أو يُسلمك إلى هؤلاء، فلا تصغ إلى ما يقوله المشركون،

(٨١) انظر: التحرير والتنوير: ٢١ / ٢٠٧.

(٨٢) انظر: حاشية الصاوي: ٣ / ٢٦١.

(٨٣) انظر: البحر المحيط: ٧ / ١٩٢.

وامض في سبيلك، ونشر دعوتك، والصدع بها، فإنك تأوي إلى ركن شديد، وهو ناصرك عليهم، ومبين زيف دعواهم، وتهافت أقوالهم وبطلانها.

يدل على هذه المعاني المستوحاة من تلك اللفظة في هذا السياق ويؤكدها إضافتها إلى ضميره (ﷺ)، وتخصيصه بالخطاب بها في قوله (رَبِّكَ)، وفي هذا تشريف له (ﷺ)، وإعلاء من قدره وشأنه، فكأنه بهذا يؤاسيه ويُسلية قائلاً له: لا يضيرك أن نال القوم منك، ونسبوك إلى الادعاء والافتراء، ولا يضيرك أبداً أن تطال القوم على مقامك، ورموك بالسحر والجنون حيناً، وبالشعر والكهانة حيناً، فلا تهتم من هذا كله ولا تغتم، ولا تلفت إليه، فحسبك بمقامك عندنا، فقد رفعنا لك ذكرك، وأعلينا قدرك.

وبعد أن ذكر - سبحانه وتعالى - إنزاله لهذا الكتاب، وبعد أن نفى عنه الريب والافتراء، ذكر بعد ذلك الحكمة من إنزال القرآن في قوله: (لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢٠﴾) وفي ذكر الغاية من إنزال القرآن عطف لقلوبهم على القرآن، للإيمان به، فهم بحاجة إليه، ولا يمكن لهم أن يستغنوا عنه أبداً، أو يستبدلوا به غيره، كما أن فيه تشجيعاً عليهم، وإنكاراً لهم إذ كفروا به، وأعرضوا عنه بعدما عرفوا الغاية من إنزاله، إذ كيف يكفرون بالقرآن ويعرضون عنه وقد نزل عليهم هم، وبُعث فيهم هذا الرسول (ﷺ) في وقت هم أشد الحاجة إليه وأمسها، فقد كانوا أمة أمية، لم يأتهم نذير قبله (ﷺ)، فإن أعرضوا بعد هذا عن القرآن، وكفروا به، تبين شدة كفرهم، وعظيم إنكارهم لهذا الكتاب الذي أنزله - سبحانه - هداية لهم، وقد ذُكرت غاية إنزال القرآن هنا، وهي الإنذار، مع أن الغاية من إنزاله التبشير - أيضاً - ولكن في ذكر الإنذار هنا وحده والاقتصار عليه إشارة إلى حال القوم، وما هم عليه من الإعراض والصد، فهم بحاجة إلى من يُنذرهم، ويخوفهم، ويُسمعهم زواجر القرآن وقوارعه.

فلعلمهم إن تأملوا هذه النذر، وما جاء في طياتها من الوعيد والتهديد، لعلمهم

إن تأملوها ووقفوا عندها أن تقودهم إلى الإيمان به، وترك الكفر والإعراض، فيكون هذا الإنذار سبباً في هدايتهم، وذلك هو الغرض من نزول القرآن الكريم.

وفي حذف مفعول الإنذار الثاني إشارة إلى عظم هذه النذر وتعددتها، فهم منذرون ومتوعدون ببأس الله، وشدة سطوته ونقمته، وهذا هو المناسب لحالهم، وما طبعوا عليه من الإعراض والإنكار.

ولهذا فإن المتأمل لحديث القرآن عن العهد المكّي يجد أنها غالباً تقتصر على الإنذار حين تذكر الغاية من نزول القرآن، وفي ذلك دلالة على حال القوم الذين نزلت عليهم هذه الآيات، وإشارة إلى موقفهم من القرآن، وشدة إعراضهم عنه، ونفورهم منه.

ثم ذكر - سبحانه - أن هذه النذر ليست مقصودة لذاتها، بل هي وسيلة لغاية عظمى، وهي هدايتهم، فقال - سبحانه - : (لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) وفي هذا دليل على أن القرآن أعظم وسيلة لحصول الهداية وتحقيقها، فمن أراد الهداية فدونه هذا الكتاب العظيم فليطلبها فيه، وصدق الله ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء: ٩)، ومن أراد الهداية بغير القرآن فلا اهتدى أبداً.

وفي هذا تعريض بكفار قريش فهم إن لم يقبلوا على القرآن، ولم ينتفعوا بنذره وزواجه فسيختبطون في دياجير الضلالة، وسيضلون على مواقفهم من القرآن لا يتحولون عنها ولا يزولون، وحسبك بهذا ذماً لهم وتقبيحاً.

وفي مجيء لفظة (يَهْتَدُونَ) فعلاً مضارعاً دلالة على تجدد حدوث هذه الهداية، وتكرار وقوعها، مرة بعد أخرى، وهذا هو المراد منهم، والمؤمل فيهم، وهو المناسب لحالهم اللائق بهم، يدل على تجدد هذه الهداية، وكثرة وقوعها حذف مفعول لفظة (يَهْتَدُونَ) فعلاً هؤلاء القوم الذين نزل عليهم القرآن إنذاراً لهم لعلمهم أن يهتدوا إلى كل ما فيه فلاحهم وصلاحهم في الدنيا والآخرة.

وبعد فإن المتأمل لهاتين الآيتين ونظمهما يجد أنهما جاءتا على أسلوب بديع الإحكام، فقد أُشير فيهما أولاً إلى إعجاز القرآن، وقصور القوم عن معارضته، أو الإتيان بمثله، وذلك بدلالة الحروف المقطعة على هذا المعنى، ثم قرّر هذا المعنى وأكدّه الإخبار بأن تنزيل القرآن من رب العالمين، وأكد هذا الأمر ودلّل عليه بنفي الريب عنه، ثم أضرب عن هذا كله ذاكراً ما عليه القوم من الخلاف في القرآن، وخلافهم مع مَنْ جاء به، إنكاراً عليهم، وتعجباً من حالهم، ثم أضرب عن هذا مرة أخرى مبيناً أن هذا الذي اختلفوا فيه هو الحق المنزل من عنده، ثم بين الغرض من تنزيله للقرآن، والمقصد من هذا الإنذار^(٨٤)، فتأمل بلاغة القرآن الكريم في إحكامه، وإعجاز نظمه، وتآلف ألفاظه.

نموذج تحليلي لآيات من سورة يس :

وفي موضع آخر ومع حديث القرآن عن القرآن، في العهد المكي يُقسم - سبحانه - بالقرآن على صدق رسالة رسوله محمد (ﷺ)، وصحة ما جاء به من عنده، يقول تعالى : ﴿ يَس ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ۝ ﴾ (يس - ١-٦)، بعد أن أفتتحت هذه السورة بالحروف المقطعة، بما فيها من إشارة إلى إعجاز القرآن، وتحدي الله لهؤلاء المشركين من معارضته، أو الإتيان بمثله، بعد هذه الحروف يُقسم - سبحانه - وتعالى - بالقرآن في قوله : (وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ)، وفي القسم بالقرآن دلالة على شرفه، وعظيم قدره، ورفعة منزلته لدى مَنْ أنزله، وتكلم به.^(٨٥)

كما أن القسم بالقرآن تجهيل لعقول أولئك المشركين، وتسفيه لها، حين أعرضت عن هذا الكتاب وكفرت به، وهو بهذه المنزلة، وتلك المكانة.

ومما زاد القرآن قدراً وشرفاً وصفه بـ (الْحَكِيمِ)، فإن لهذا الوصف دلالة

(٨٤) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٤ / ١٥٥ .

(٨٥) انظر: التحرير والتنوير: ٢٢ / ٣٤٥ .

وإيحاء في هذا السياق، وفي خدمة الغرض الذي سيقت من أجله هذه الآيات، وذلك أن هذا الوصف بيان أن هذا القرآن الذي كفروا به وأعرضوا عنه قد أحكمت آياته، فهو محكم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ^(٨٦)، كما أحكمت معانيه ومبانيه، فلا يتطرق إليه الخلل، ولا يأتيه التعارض والبطلان ^(٨٧)، وفي وصف القرآن بالحكيم مجاز عقلي، « ذلك أن هذا القرآن كلام حكيم، فوصف بصفة المتكلم به » ^(٨٨).

وقد ذكر - سبحانه - عن القرآن بأنه حكيم في أربعة مواضع من حديث القرآن عن القرآن، وحين نتأمل هذه المواضع الأربعة كلها نجد أنها جميعاً في العهد المكي، فقد ذكر أولاً في سورة (يونس) في الآية [١] في قوله :

﴿الرَّتِّلَكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ وفي سورة (لقمان) في الآية [٢] في قوله :

﴿تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ وفي سورة (الزخرف) في الآية [٤] في قوله :

﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾

وفي هذا الموضع من سورة (يس)، وهذه السور كلها مكية، بل ثمة ملحظ آخر لورود هذا الوصف (حكيم) في حديث القرآن عن القرآن، وهو أن مجيء هذا الوصف في مطالع السور، وبعد افتتاحها بالحروف المقطعة.

ولهذين الملحقين دلالتهما المهمة في حديث القرآن عن القرآن في العهد المكي، إذ إن هناك ارتباطاً بين هذا الوصف وإيحاءاته وبين القوم الذين نزلت عليهم هذه الآيات المشتملة على هذا الوصف، وذلك أن في نعت القرآن بهذا الوصف مزيد إنكار على كفار قريش في موقفهم من القرآن، وإعراضهم عنه، إذ كيف يقولون في القرآن ما يقولون وهذه أوصافه، وتلك نعوته؟! وأنى لهذا القرآن - وقد نعت من أنزله وتكلم به أنه حكيم - أن يكون مفترى، أو أن يكون سحراً وشعراً؟! ومن

(٨٦) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٣ / ٦١٩ .

(٨٧) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٥ / ١٠ .

(٨٨) الكشف: ٣ / ٣١٤، للاستزادة في الوقوف على هذه المجاز وبلاغته انظر: إرشاد العقل السليم: ٧ / ١٥٨، و: التحرير

والتنوير: ٢٢ / ٣٤٥ .

هنا تعظم فريتهم في القرآن، وتزداد شناعة ونكراناً، ومن ثم يُعلم زيف دعواهم في القرآن، وتهافت افتراءاتهم فيه وبطلانها، فلا يعدو موقفهم من القرآن إلا أن يكون مجرد دعاوى وافتراءات لا تثبت أمام حقائق القرآن وأوصافه، ومن هنا يتجلى سرُّ ورود هذا الوصف في حديث القرآن عن القرآن في العهد المكي.

وأما ورود هذا الوصف بعد الحروف المقطعة فلعلَّ في هذا - والله أعلم - إشارة إلى الحكم والأسرار التي اشتملت عليها الحروف المقطعة، وذلك أن هذه الحروف سرُّ من أسرار هذا الكتاب العزيز، ولا زال العلماء ينظرون فيها ويستنبطون، وسواء علم المراد منها أو لا، إلا أن يقيننا أن لهذه الحروف حكماً وأسراراً، ومن هنا جاء هذا الوصف (حكيم) بعد هذه الحروف إشارة إلى هذه المعاني كلها، وتأكيدها لها. كما أن في هذا دعوة لكفار قريش إلى الإقبال على القرآن، والنظر في حكمه وأسراره، والوقوف عند إعجازه، فهذا هو المفترض فيهم، والمؤمل منهم، فإن لم يكن هذا منهم، فلا أقل من الإيمان به، والإقرار به، والاعتراف بإعجازه، ودقة نظمه، ولكن لم يكن منهم هذا ولا ذاك، فقد أعرضوا عنه، وكفروا به، ومن هنا كان ورود هذا الوصف في حديث القرآن عن القرآن في العهد المكي مزيد إنكار، وتشنيع عليهم، والله أعلم بأسرار كتابه.

ثم قال - سبحانه - بعد هذا (إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٢٧﴾) جواباً لذلك القسم المتقدم، فهو قسم منه - سبحانه - بالقرآن الحكيم بأن محمداً (ﷺ) من المرسلين، ولا يخفى ما بين المقسم به - وهو القرآن - والمقسم عليه - وهو رسالة الرسول (ﷺ) من الاتصال الوثيق، والارتباط الكبير بينهما، فالقرآن هو الشاهد على هذه الرسالة وصدقها، ولولم يكن لهذه الرسالة شاهد ولا دليل إلا القرآن الكريم لكفاها دليلاً وبرهاناً على صدقها، وصدق من جاء بها. (٨٩) وقد يقول قائل: إن الله - سبحانه وتعالى - في هذه الآيات يُقسم بالقرآن على

صدق الرسالة، ومن المقرر في الأقسام حتى تعطى ثمارها المرجوة منها أن المقسم لا يُقسم إلاّ بأمر عظيم لديه، ويُعظمه المخاطب كذلك، ويؤقره في نفسه، وحين ننظر في هذه الآيات نجد أن المخاطب بها كفار قريش، وهم منكرون ما أقسم الله به وهو القرآن، وما أقسم عليه وهي رسالته (ﷺ) أشد الإنكار، فهذان الأمران (القرآن والرسالة) هما الموضوعان الرئيسان اللذان طال فيهما جدل القوم، وإنكارهم لهما، فلا يؤمنون بكتاب مُنزل، ولا يقرون برسول مبعث، فإذا كان الأمر كذلك، وهذه حالة القوم الذين حُوطبوا بهذه الآيات فما السرُّ في ورود هذا القسم في مخاطبتهم، كيف وقد كثر هذا الأسلوب في العهد المكي في حديث القرآن عن القرآن؟ وقد أجاب الدكتور السيد عبدالمقصود جعفر عن هذا السؤال إجابة شافية، وذكر تعليلاً نفيساً لهذه الظاهرة الأسلوبية في حديث القرآن عن القرآن في العهد المكي، مُبيناً المغزى، والسرَّ في ورود هذا الأسلوب قائلاً: «الله - سبحانه وتعالى - لا ينتقي ما يُقسم به، وفق أهواء المبطلين، وما يحبون وما يكرهون، وما يصدقون وما يكذبون، وإنما وفق ما يعلم هو أنه يستحق التعظيم، وتلك أمانة من أمارات صدق القرآن، لأن الصادق يخاطب الناس بمعيار الحق وحده، لا بمعيارهم، ويصدق بالحق وحده مهما كان موقفهم منه، فكأنه - جل وعلا - يقول لهم في مثل هذا الأساليب: إن إنكاركم للقرآن ليس بشيء، وإن تعظيمه - أيضاً - لا يتوقف على شهادتكم له أو شهادة غيركم، لأنه في نفسه عظيم، كما أن تكذيبكم لمحمد (ﷺ)، وغضكم من شأنه لا وزن له كذلك، ولا يمنع من تعظيمه، طالما أنه حقاً جليل وعظيم، إن المقسم به في مثل هذه الأساليب نوع من المواجهة البارة التي تجمع بداخلها معاني متعددة: تجمع بين قوة الحق وثقته في نفسه، وتبكيك الذين يعارضونه وتسفيههم، وحثهم أيضاً على تأمل ما يعارضونه، ومراجعة موقفهم منه»^(٩٠).

وفي تأكيد قوله : (إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) بـ (إِنَّ وَاللَّام واسمية الجملة) إشارة إلى ما في قلوب كفار قريش من الإنكار الشديد لهذه الرسالة وجحودها ، كما جاء ذلك صريحاً في قولهم - كما حكى الله ذلك عنهم في قوله : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ (الرعد - ٤٣) ، فيكون هذا الجواب من جملة ما شهد به - سبحانه - لرسوله (ﷺ) . (٩١)

ومن هنا جاء نظم الآية وأسلوبها متوافقاً كل التوافق مع موقف المشركين من القرآن ، وفي هذا دليل على أن خصائص هذه الآيات الأسلوبية في حديثها عن القرآن في العهد المكي كانت منبثقة من حال القوم المخاطبين بها ، ومن موقفهم - كذلك - من القرآن الكريم .

كما أن في تأكيد هذا الخبر شهادة منه - سبحانه وتعالى - لرسوله (ﷺ) ، وزيادة تقرير ، وتثبيت له (٩٢) ، وشد من أزره في تبليغه دعوة ربه ، وتحمله أعباء هذه الرسالة ، ومكابدة مشاقها ، يدل على هذا المعنى : مجيء الخطاب في هذه الآية موجهاً إليه - (ﷺ) دون القوم الذين أنكروا الرسالة ، وكفروا بها ، وفي هذا تشريف له - أيضاً - (ﷺ) ، كما أن في صرف الخطاب عن أولئك المكذبين المنكرين « ترفعاً بالقسم وبالرسول (ﷺ) وبالرسالة على أن تكون موضع جدل أو مناقشة ، إنما هو الإخبار المباشر من الله إلى رسوله - (ﷺ) » . (٩٣)

وقد دلَّ على هذه الأسرار كلها الجواب حينما جاء مؤكداً بهذه المؤكدات ، بل إن فيها لمزيداً لمن يتدبرها ، وينظر فيها متأملاً ، وذلك أن الأسرار والنكت البلاغية لا تتزاحم فيما بينها ، بل تتصافر جميعاً لتحقيق الغرض المنوط بها ، الذي سيقَّت هذه الآيات من أجله .

(٩١) انظر: إرشاد العقل السليم: ٧ / ١٥٨ .

(٩٢) انظر: التحرير والتنوير: ٢٢ / ٣٤٦ .

(٩٣) في ظلال القرآن: ٥ / ٢٩٥٨ .

ثم بين - سبحانه - في قوله : (عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ما عليه رسوله (ﷺ) من المنهج القويم، والطريق الواضح، الذي لا اعوجاج فيه ولا التواء ولا انحراف، وهو الإسلام والهدى^(٩٤)، وهي طريقة الأنبياء الذين تقدموه، فهو (ﷺ) يسير على نهجهم، ويقتفي أثرهم، ويواجه ما واجهوا من كفر أقوامهم، وإعراضهم عنهم وصدودهم.

وقد دل حرف الجر (عَلَى) - بدلالته على الاستعلاء - على مكن الرسول (ﷺ) من هذا الصراط، واستعلائه عليه تمكناً وثباتاً.^(٩٥)

وفي معجىء لفظة (صِرَاطٍ) نكرة دلالة على عظم هذا الصراط، وفخامة شأنه، وعلو قدره، وسمو منزلته ومكانته^(٩٦)، وقد دل على عظمة هذا الصراط وجلالة قدره وصفه بلفظة (مُسْتَقِيمٍ) ففيه بيان لهذا الصراط، وكشف عن حقيقته، كما أن فيه مزيد إيضاح لهذه الرسالة التي جاء بها (ﷺ)، وبياناً لطبيعتها ومنهجها^(٩٧)، ومن هنا يلتقي غرض تنكير لفظة (صِرَاطٍ)، مع إحياء وصف (مُسْتَقِيمٍ) ودلالاته في بيان حقيقة هذه الرسالة، والكشف عن خصائصها، ومن ثم تلتقي جميعاً في بيان ما كان عليه (ﷺ) من الحق والثبات والهدى.

ثم ذكر - سبحانه وتعالى - حقيقة القرآن، مبيناً مصدره، ونزوله من عنده في قوله : (تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ) وقد جاء الإخبار عن إنزال القرآن بالمصدر في قوله : (تَنْزِيلٌ) وهو بمعنى المفعول، ومجيئه بهذه الصيغة مبالغة في تحقق كونه نازلاً من عنده - سبحانه -، فكأنه هو نفس التنزيل.^(٩٨)

وفي هذا رد على كفار قريش الذين أنكروا نزول القرآن من عند الله، ومن ثم

(٩٤) انظر: جامع البيان: ٢٢ / ١٤٩ .

(٩٥) انظر: التحرير والتنوير: ٢٢ / ٣٤٦ .

(٩٦) انظر: الإنصاف فيما تضمنه الكشف من الاعتزال: ٣ / ٣١٤ .

(٩٧) وقد ذكر الشيخ عبدالرحمن السعدي كلاماً نفيساً في تفسيره عن استقامة هذا الصراط (انظر: تيسير الكريم الرحمن: ٤ / ٢٢٨)، وكذلك سيد قطب في ظلاله فقد تحدث عن إحياء استقامة هذا الصراط ودلالاته (انظر: في ظلال القرآن: ٥ / ٢٩٥٨)، فتحسّن قراءة ما ذكره.

(٩٨) انظر: إرشاد العقل السليم: ٧ / ١٥٩ .

قادهم الإنكار إلى نسبة القرآن إلى الافتراء والاختلاق حيناً، وإلى الشعر والسحر والكهانة حيناً آخر.

ولهذين الوصفين (الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) دلالتهما في هذا السياق، وذلك أن فيهما إشارة إلى ما تضمنه القرآن، وما جاء فيه، كما أن فيهما إشارة إلى حال القوم الذين نزل عليهم هذا القرآن، وانقسامهم حوله إلى مؤمنين وكافرين.

كما أن في ذكر هذين الوصفين في هذا المقام - في معرض الحديث عن إنزال القرآن - ترغيباً لهؤلاء الأقوام الذين نزل عليهم القرآن بالإيمان به، والإقبال عليه، كما أن فيه ترهيباً لهم من الكفر به، والإعراض عنه. ^(٩٩)

وفي هذين الوصفين - أيضاً - دلالة على أن إنزال القرآن ناشئ من رحمته - سبحانه - بعباده، فقد أنزل هذا الكتاب ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ولينقذهم به، ويسعدهم في الدنيا والآخرة، وإنزاله بهذه الطريقة، وبهذا الإحكام هو مقتضى حكمته وعزته، كما أن حفظ القرآن من كل تغيير وتحريف وتبديل من دلائل عزته وغلبته - سبحانه -.. ^(١٠٠)

وقد ناسب حال القوم، وما هم عليه من التكذيب بالقرآن، وبنزوله من عند الله تقديم صفة (الْعَزِيزُ) على صفة (الرَّحِيمُ) إشارة إلى حالهم وموقفهم من القرآن، كما أن في ذلك تعريضاً بهم، وتهديداً لهم - من طرف خفي - بسطوة منزل هذا الكتاب وشدة بأسه ونقمته، فإنه عزيز لا يُغالب، لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء . وبعد أن ذكر - سبحانه - إنزاله للقرآن، وبيان صفاته، ذكر الحكمة من نزوله في قوله : (لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ) وقد كشف هذه الحكمة اللام في قوله : (لِنُنذِرَ) - بدلالته على التعليل - على الغاية من نزول القرآن، فبين - سبحانه وتعالى - أنه أنزل هذا الكتاب لينذرهم به، ومن بلغ .

ومن رحمته - سبحانه وتعالى - بهم أن يذكر الغاية من نزول القرآن، ليقفوا عند غاياته ، ومقاصده الجليلة، وفي هذا دعوة لهم إلى الإيمان به، والإقبال عليه .

(٩٩) انظر: إرشاد العقل السليم : ٧ / ١٥٩ .

(١٠٠) انظر: تيسير الكريم الرحمن : ٤ / ٢٢٨ .

وقد ناسب حال القوم، وما هم فيه من الإعراض والصد أن يُذكر الإنذار في هذا السياق، ويُقتصر عليه دون التبشير، وذلك أنهم بحاجة إلى هذا الإنذار، وإلى قرع أسماعهم بزواج القرآن وقوارعه ومواعظه، فلعلَّ هذا الإنذار أن يكون سبباً في تأثرهم بالقرآن، وإقبالهم عليه، وانتفاعهم به، ومن ثم يتحولون عن موقفهم المشين نحو القرآن، ويستبدلون بالكفر إيماناً، وبالإعراض إقبالاً، وإن لم يكن منهم هذا - لفرط عنادهم، وشدة استكبارهم، وقسوة قلوبهم - فقد أعذرهم - سبحانه -، وقامت عليهم الحجة، فقد نزل عليهم القرآن، وقرعت مسامعهم نذره وقوارعه، وبُيِّنَتْ لهم حكمه ومقاصده .

وفي ذكر حال القوم المنذرين بالقرآن في قوله : (لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ) بيان لشدة حاجتهم إلى هذا الإنذار، وعظيم نفع القرآن الكريم، وجليل أثره عليهم^(١١)، فقد نزل عليهم القرآن وهم في أمس الحاجة إليه، وإلى مواعظه وزواجره، فهؤلاء القوم غافلون غفلة دائمة مستمرة ثابتة لا تحول عنهم ولا تزول، يدل على هذا: اسمية هذه الجملة، ففيها إشارة إلى ثبات هذه الغفلة ودوامها.

يؤكد هذا المعنى - أيضاً - ويدل عليه حذف متعلق (غَافِلُونَ)؛ وذلك لتشمل هذه الغفلة كل شيء، فقد غفل القوم عن كل ما ينفعهم، وما فيه صلاح أمرهم في دينهم ودنياهم، وكيف لا يكونون غافلين ولم يُنذر آباؤهم من قبل، فما بُعث إليهم رسول، ولا أنزلت عليهم الكتب، وكذلك حال القوم، فما أتاها من نذير من قبله (ﷺ)، وفي ذكر هذه الحالة وبيانها دعوة لهم إلى الإقبال على القرآن، وتصديقه، والإيمان به.

خلاصة الخصائص الموضوعية والأسلوبية للآيات المكية :

وهكذا وبعد هذه الوقفة مع بعض آيات حديث القرآن عن القرآن في العهد المكي تتبين خصائص هذه الآيات الموضوعية والأسلوبية، فموضوع هذه الآيات يكاد ينحصر في الحديث عن إنزال الله للقرآن، وذكر صفاته وخصائصه، ونزوله

بلسان عربي مبين، ونفي الريب عنه والافتراءات، وبيان الحكمة من إنزاله، والإشارة إلى موقف كفار قريش من القرآن، وبيان حالهم معه، وما هم فيه من الإنكار، وإنكار نزوله من عند الله، ورميهم له بالريب والافتراء، وبالسحر والشعر، مع شدة حاجتهم له لعدم إنذارهم وإنذار آبائهم من قبل مبعثه (ﷺ)، فهذه هي موضوعات هذه الآيات في العهد المكي.

وقد عُبر عن هذه الموضوعات والمعاني بأسلوب جزل قوي يتجلى ذلك في توافر أدوات التوكيد فيه بأنواعه المتعددة، وبالقسم، والاستفهام الإنكاري التوبيخي التعجبي، وب(بَلْ) المفيدة للإضراب، والألفاظ الموحية المججلة، وغير ذلك من الأساليب الدالة على المواجهة والمجابهة، والإنكار عليهم بسبب موقفهم من القرآن. وقد كانت هذه الخصائص الموضوعية والأسلوبية اقتضاء لموقف هؤلاء المشركين، وما طبعوا عليه من العناد والصد، ومراعاة - كذلك - لموقفهم من القرآن، وشدة تكذيبهم له، فجاءت هذه الخصائص متوافقة أتم التوافق مع طبيعة هذه المرحلة، وظروفها، وحال القوم مع هذه الآيات، ومن ثم كانت هذه الآيات محققة الغرض منها، على أكمل وجه وأتمه.

وفيما يلي أذكر بعض الآيات من العهد المدني في حديث القرآن عن القرآن؛ للنظر في خصائصها الموضوعية والأسلوبية، لنقف عند الفروق بين آيات هذين العهدين في حديث القرآن عن القرآن.

وقفات بلاغية مع آيات مدنية :

في حديث القرآن عن القرآن في العهد المدني، يخاطب - سبحانه وتعالى - اليهود أمراً بإيهم بالإيمان بالقرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد (ﷺ)، في قوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (النساء - ٤٧)، في نداء اليهود ومناداتهم بهذا النداء

(يَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) دلالة على مدنية هذه الآية، إذ لم يكن لليهود وجود في مكة، ولا ذكر لهم كذلك إلا نادراً، بخلاف حديث القرآن عنهم في المدينة، فما أكثر ما تحدث القرآن عنهم في بيان موقفهم من القرآن، وفي الأمر لهم بالإيمان به، وترك مخالفته، وفي نهيمهم عن عدم الاشتراء به ثمنًا قليلاً، أو أن يجعلوه وراء ظهورهم. لذا فمن أكبر الدلائل على كون هذه الآية مدنية ورود هذا النداء فيها (يَأْهَلُ الْكِتَابَ) أو ورود هذا الوصف فيها (الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ) فقد ورد هذا الوصف (يَأْهَلُ الْكِتَابَ) إحدى وثلاثين مرة في القرآن الكريم، وتلك المواضع كلها واردة في العهد المدني، ما عدا موضع واحد، فقد وردت في العهد المكي، في سورة (العنكبوت) (٤١)، في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ﴿١٦﴾

ومن العجائب أن هذه السورة آخر ما نزل من السور في العهد المكي، فكان في ذكرهم في هذه السورة تمهيد للإفاضة في الحديث عنهم، وذكرهم في العهد المدني، وبيان مواقفهم من الدعوة وكتابها^(١٠٢)، وكذلك قوله (الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ) فقد وردت خمس عشرة مرة في القرآن^(١٠٣)، وذلك كله في العهد المدني، ما عدا موضع واحد في سورة (المدثر)، وموضع آخر في سورة (البينة) المختلف فيها بين المكي والمدني، وإن كان الجمهور يرى أنها مدنية.^(١٠٤)

هذه الآية امتداد للحديث عن اليهود في العهد المدني، وأمرهم بالإيمان بالقرآن، وفي مناداة هؤلاء اليهود بهذا الوصف (يَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) تأكيد للأمر بالإيمان بالقرآن، وذلك أن كونهم موصوفين بهذا الوصف من أكبر الموجبات للإيمان بالقرآن، كيف لا وقد تفضل - سبحانه - عليهم بأن آتاهم الكتب

(١٠٢) انظر: مقدمة في خصائص الخطاب القرآني: ٣٢٩.

(١٠٣) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: مادة: كتب.

(١٠٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٠ / ١٢٩.

التي أنزلها على أنبيائهم، ومن هنا يتبين سرُّ ورود هذا الوصف في حديث القرآن عن القرآن في العهد المدني، في معرض أمرهم بالإيمان بالقرآن.

كما أن تعريف القرآن - بهذا المقام - بطريق الموصول في قوله (بِمَا نَزَّلْنَا) إشارة إلى عظم القرآن، وجليل قدره عند الله - سبحانه وتعالى - يدل على هذا المعنى ويؤكدده: إسناد فعل النزول إلى ضمير التعظيم، دلالة على شرف القرآن ومنزلته، وفي هذا حث لهم على الإيمان به، والإقبال عليه. (١٠٥)

ثم ذكر - سبحانه وتعالى - وصفاً آخر للقرآن في قوله (مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ)، وفي وصف القرآن بهذا الوصف حث لهم - أيضاً - للإيمان به وتصديقه، والعمل بما جاء فيه، والتحذير من تكذيبه، ومخالفة ما جاء فيه.

كما أن في هذا الوصف إعلماً لهم، وإقامة الحجة عليهم، ببيان أن الإيمان بالتوراة مستلزم الإيمان بالقرآن، وذلك أن هذه الكتب يُصدق بعضها بعضاً، كما أن الكفر بواحد منها كفر بها جميعاً. (١٠٦)

وبعد أن أمرهم - سبحانه - بالإيمان بالقرآن، حذرهم مغبة كفرهم به، وإعراضهم عنه في قوله: (مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدُّهَا عَلَىٰ أَذْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ آلِ سَبْتٍ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) ولا يخفى ما في هذه الجملة من التهديد والوعيد الشديد لهم، الداعي إلى سرعة الامتثال إلى الإيمان بالقرآن، والمسايرة - كذلك - إلى الانتهاء عما هم عليه من التكذيب به ومخالفة ما جاء فيه. (١٠٧)

وقد جاء هذا التهديد على أبلغ الوجوه وأكدها، كما جاء متوافقاً كل الموافقة مع مضمون الآية، وما توعدوا به، لذا فمجيء الآية بهذا الأسلوب القوي الجزل إشارة إلى الخصائص الأسلوبية للآيات في العهد المدني، وما تميزت به، فإن كان الطابع العام للآيات في العهد المدني هدوء عباراتها وإيقاعاتها، إلا أنها قد تخرج

(١٠٥) انظر: إرشاد العقل السليم: ٢ / ١٨٥، و: التحرير والتنوير: ٥ / ٧٨.

(١٠٦) انظر: التحرير والتنوير: ٢ / ١٨٥.

(١٠٧) انظر: التحرير والتنوير: ٢ / ١٨٥.

حيناً عن هذا الإطار العام، وذلك حين تخاطب أهل الكتاب، وهذا هو الملائم معهم، والمتوافق مع حالهم مع القرآن الكريم.

تأمل قوله: (مِّن قَبْلٍ)، وأنعم النظر فيها، وأصغ بسمعك إلى جرسها وإيقاعها، تجد أن لها ظلالاً شاخصاً في الذهن، وجرساً قوياً يصيح الأذن يشدد ويشدد، ثم أعد النظر فيها - أيضاً - تجد أنها تحمل كل معاني التهديد والوعيد، كما أن فيها أمراً بالبدار والمسارة، ففيها الأمر بالإيمان بالقرآن، والمسارة في ذلك، ما داموا في زمن الإمهال، من قبل أن ينالهم هذا الوعيد، فحينها لا مناص ولا مفر.

كما لا يخفى ما تضمنته هذه اللفظة (مِّن قَبْلٍ) من الإشارة إلى قرب وقوع هذا الوعيد، وأنه واقع بهم لا محالة إن لم يؤمنوا بالقرآن، فهو وشيك الوقوع.

ومما زاد هذه العبارة تهديداً ووعيداً أن كان العذاب الذي تُوعدوا به هو طمس الوجوه، وقد اختلفت عبارات المفسرين في بيان المراد بهذا التهديد، وفي بيان كيفية طمس هذه الوجوه، وحين ننظر في معنى الطمس لغة نجد أنه بمعنى المحو وإزالة الأثر^(١٠٨)، يدل على هذا المعنى اللغوي: قول العرب في وصف المفازة: إنها طامسة الأعلام، وقولهم: طمس الطريق إذا انمحت آثاره.^(١٠٩)

فهذا هو معنى هذه اللفظة، وأما المراد بها في هذه الآية، فقد ذكر المفسرون أن هذه اللفظة إما أن تكون على الحقيقة، أو على المجاز، فإن كانت على حقيقتها فالمراد بها: محو آثار وجوههم حتى تصير كالقفا، وكذلك تطمس أبصارهم فيصирون عُمياناً^(١١٠)، فيكون معنى الرد على الأدبار على هذا المعنى: أن تحوّل الوجوه إلى الأقفاء، والأقفاء إلى الوجوه، فيمشون القهقري^(١١١)، ولا يخفى شدة هذه العقوبة عليهم، وعظم أثرها، ونكايتها بهم، لما في هذه العقوبة من التشويه

(١٠٨) انظر: المفردات لألفاظ القرآن الكريم: مادة: طمس.

(١٠٩) انظر: التفسير الكبير: ١٠ / ١٢١.

(١١٠) انظر: جامع البيان: ٥ / ١٢١.

(١١١) انظر: المصدر السابق: ٥ / ١٢٣، للاستزادة في معنى هذه الآية انظر: محاسن التأويل: ١ / ٤٣٨، و: تفسير القرآن

العظيم: ١ / ٥٥٦، و: التفسير الكبير: ١٠ / ١٢١، وغيرها.

في الخَلقة والمثلة بهم والفضيحة، فعند ذلك يزداد همهم وغمهم، وتطول عندها حسرتهم وندامتهم.

والم تأمل لهذه العقوبة يجد أنها تعكس موقفهم من القرآن، وحالهم معه، فقد كان جزاؤهم هذا من جنس ما عملوا مع القرآن « فكما تركوا الحق، وآثروا الباطل، وقلبوا الحقائق، فجعلوا الحق باطلاً، والباطل حقاً جُوزوا من جنس ذلك، بطمس وجوههم بأن تجعل في أقفائهم، وهذا أشنع ما يكون ».^(١١٢)

وقد يكون الطمس مجازياً، فيكون المعنى على هذا: أن تعمى بصائرهم عن الحق، فترد على أذارها فيتخبطون في الضلالة والكفر ضلالاً بعيداً لا يؤمنون بعده، ولا يهتدون^(١١٣)، فيكون المراد بهذا الطمس: طمس القلوب، وذلك بإزالة آثار التمييز فيها، ومحو دلائل المعرفة منها^(١١٤)، فيكون الطمس على هذا المعنى: مثلاً ضربه الله لهم في صرفهم عن الحق، وفي تنكبهم الطريق المستقيم، والمحجة البيضاء، وردهم إلى الباطل، وسبل الغواية والفساد، يهرعون إليها، ويهوون في دركاتهما إلى أسفل سافلين.^(١١٥)

وهذه الأقوال وإن تعددت إلا أنها تلتقي جميعاً في هذا الوعيد الشديد، والتهديد لهم إن لم يؤمنوا بالقرآن العظيم الذي أنزله - سبحانه - كما لا يخفى أن شدة هذا الوعيد وعظمته دلالة على عظم جرمهم وشناعته، كما في هذا الوعيد الشديد دلالة على منزلة القرآن، وعظيم قدره، ومكانته، فهم لما كفروا بأمر عظيم عاقبهم - سبحانه - بهذا العذاب العظيم، وهُدِّدوا به.

وقد جاءت لفظة (وُجُوهًا) نكرة، وفي هذا التنكير دلالة على التكثير^(١١٦)، وفي هذا تهويل لهذا الوعيد، وبيان لشدته، كما أن في هذا التنكير بهذا الغرض ذماً

(١١٢) تيسير الكريم الرحمن: ١ / ٣٥٦.

(١١٣) انظر: جامع البيان: ٥ / ١٢٢.

(١١٤) انظر: التحرير والتنوير: ٥ / ٧٩.

(١١٥) انظر: تفسير القرآن العظيم: ١ / ٥٥٦، وقد ذكر البغوي كلاماً نفيساً في تفسير هذه الآية، تحسن قراءته، والوقوف عنده

(انظر: محاسن التأويل: ١ / ٤٣٨).

(١١٦) انظر: إرشاد العقل السليم: ٢ / ١٨٥.

لليهود على مواقفهم من القرآن الكريم، وذلك أن فيه دلالة على تجمعهم وإجماعهم على هذا الموقف المشين ضد القرآن، فكأنهم أجمعوا على هذا الموقف، وصدروا في موقفهم هذا من القرآن وتكذيبهم له عن إجماع واتفاق فيما بينهم، وفي هذا ذم لهم، وتوبيخ على هذا الأمر، وعلى اتخاذ هذا الموقف المجمع عليه ضد القرآن. كما أن في تنكير هذه اللفظة (وَجُوهًا) دون تعريفها، إذ لم يقل (وجوهكم)، في هذا تلطف بالعبارة معهم، إذ لم يواجههم بهذا الوعيد ويخاطبهم به، وفي هذا دعوة لهم - من طرف خفي - إلى الإيمان بالقرآن، والإقبال عليه، وترك تكذيبه، والإعراض عنه. (١١٧)

ثم ذكر - سبحانه - وعيداً آخر لأهل الكتاب إن لم يؤمنوا بالقرآن في قوله : (أَوَلَمْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ) ، فقد هددهم - سبحانه - ، وتوعدهم بطمس الوجوه ، أو بلعنهم كما لعن أسلافهم من قبل ، وهم الذين اعتدوا في السبت (١١٨) ، فطردهم وأبعدهم من رحمته ، وجعلهم قردة وخنازير ، ففي هذه الآية وعيد شديد لهم وتهديد إن لم يتداركوا أنفسهم ، ويبادروا بالإيمان بالقرآن .

والم تأمل في نظم هذه الآية يجد أن فيها التفاتاً من الخطاب إلى الغيبة ، فقد بدأت الآية بأسلوب الخطاب في قوله : (يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُونَ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ..) ثم انتقل هذا الأسلوب من الخطاب إلى الغيبة في قوله : (أَوَلَمْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ) ولو جرى الكلام على مقتضي الظاهر ل قيل : أو نلعنكم ، بأسلوب المخاطبة ، وقد ذكر العلماء بلاغة الالتفات وأسراره في هذا المقام ، فذكروا : إن في الالتفات إلى الغيبة تلطفاً معهم في العبارة ، كما أن فيه استدعاء إيمانهم بالكتاب ، وعطفاً لقلوبهم للاستجابة لهذا الأمر ، والإذعان له ، حيث لم يواجههم بهذه اللعنة ، كيف وقد شرفهم وأعلى من قدرهم في صدر هذه الآية ، حينما خاطبهم بأهليتهم للكتب التي أنزلها على أنبيائه

(١١٧) انظر: المصدر السابق: ٢ / ١٨٥ .

(١١٨) للوقوف على قصة أصحاب السبت ، ومعرفة خبرهم ، وشناعة جرمهم ، ومآل إليه أمرهم ، انظر: تفسير القرآن العظيم: ٢ / ٢٨٦

الذين أرسلهم إليهم، وبفضلهم عليهم بإيتائهم هذه الكتب، فكأن الالتفات بهذا الطريق امتداد لذلك التفضل عليهم، وذلك التشریف. ^(١١٩)

ولأبي حيان الأندلسي وقفة مع هذا الالتفات، بين من خلالها أسرارها البلاغية، يقول: « ومحسن هذا الالتفات هو أنه - تعالى - لما ناداهم كان ذلك تشریفاً لهم، وهز السماع لما يليق به إليهم، ثم ألقى إليهم الأمر بالإيمان بما نزل، ثم ذكر أن الذي نزل هو مصدق لما معهم من كتاب، فكان ذلك أدعى إلى الإيمان، ثم ذكر هذا الوعيد البالغ، فحذف المضاف إليه من قوله: (مَنْ قَبْلَ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا) والمعنى: وجوهكم، ثم عطف عليه قوله: (أَوْ نَلْعَنَهُمْ) فأتى بضمير الغيبة، لأن الخطاب حين كان الوعيد بطمس الوجوه، وباللعنة ليس لهم ليبقى التأنيس، والاستدعاء إلى الإيمان غير مشوب بمفاجأة الخطاب الذي يوحش السامع، ويروع القلب، ويصير أدعى إلى عدم القبول، وهذا من جليل المخاطبة، وبديع المحاروة» ^(١٢٠) وقيل: إن في هذا الالتفات إشارة إلى معنى اللعنة، وتحقيق وقوعها، وذلك أن اللعن هو الطرد والإبعاد، فكأنهم حين لعنوا صاروا بعيدين، وذلك أن ذكر البعيد والمحادثة معه لا تكون إلا بأسلوب الغيبة. ^(١٢١)

وقد يقول قائل: إن الله - سبحانه وتعالى - قد توعدهم في هذه الآية بالطمس واللعنة إن لم يؤمنوا، ولم يؤمن هؤلاء القوم، وبقوا على ما هم عليه من التكذيب بالقرآن، والإعراض عنه، فأين وقوع هذا التهديد؟ وقد أجاب العلماء عن هذا التساؤل مبينين أن هذا الوعيد باقٍ إلى يوم القيامة، وسيكون ثمة طمس ومسح لهم قبل قيام الساعة، وقيل: إن هذا الوعيد مشروط بالإيمان، فلما أسلم بعضهم كعبداً بن سلام وأصحابه، دُفع ذلك عن الباقيين، وقيل: إن الله - سبحانه وتعالى - توعدهم بالطمس أو اللعن، فإن لم يقع الطمس، فلا نزاع في وقوع اللعن، وذلك

(١١٩) انظر: الدر المنثور: ٢ / ٣٧٥ .

(١٢٠) البحر المحيط: ٣ / ٢٧٩ .

(١٢١) انظر: التفسير الكبير: ١٠ / ١٢٣ .

أنهم ملعونون على كل لسان، وفي كل زمان. (١٢٢)

وقد جاءت فاصلة هذه الآية (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) مقررة مضمون ما تقدمها، ومؤكدة له، مبينة أنه - سبحانه وتعالى - إن أَمَرَ بِأمر فإنه لا يخالف ولا يُمانع، وأن ذلك الأمر واقع لا محالة، كما أن في هذه الفاصلة حملاً لأهل الكتاب إلى سرعة الاستجابة والإيمان بالقرآن، خشية تحقق هذا الوعيد فيهم، فكأنه قيل لهم: «أنتم تعلمون أنه كان تهديد الله في الأمم السابقة واقعاً لا محالة، فاحترزوا الآن، وكونوا على حذر من هذا الوعيد» (١٢٣)، لأنه وعيد من لا يتعذر عليه فعل شيء في الأرض ولا في السماء ولا يُعجزه، وإنما يقول له كن فيكون.

وبعد ومن خلال الوقفة مع هذه الآية - التي ذكرت موقف أهل الكتاب من القرآن، وما ينبغي أن يكونوا عليه من الإيمان به وتصديقه - تبين بعض الخصائص الموضوعية والأسلوبية للآيات في العهد المدني في حديثها عن القرآن في مخاطبتها لأهل الكتاب، فقد تشكَّلت ملامح هذه الآيات وخصائصها الأسلوبية من مواقفهم الثابتة نحو القرآن، فجاء أسلوبها في خطابها لهم موافقاً لمقتضى موقفهم من القرآن، إذ لن ينزجر القوم، وينفكوا عما هم عليه من التكذيب، والكفر به إلا بمثل هذه القوارع والزواجر التي تحمل في طياتها الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد، المتضمن طمس وجوههم، أو لعنهم.

نموذج تحليلي من سورة النساء :

وفي موضع آخر - ومع حديث القرآن عن العهد المدني - يذكر - سبحانه - منته وفضله على رسوله (ﷺ)، وعصمته له من مكائد المنافقين، ودسائسهم له، يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (النساء - ١١٣)

(١٢٢) انظر: معالم التنزيل: ١ / ٤٣٩، و: الكشف: ١ / ٥٣٢، و: إرشاد العقل السليم: ٢ / ١٨٦.

(١٢٣) التفسير الكبير: ١٠ / ١٢٣.

هذه الآية لها تعلق بالآيات التي قبلها، وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ (النساء - ١٠٥) وما بعدها من الآيات، ولربط هذه الآية بالآيات التي قبلها، أشير إلى ما ذكر في سبب نزولها، حتى يتضح المراد من هذه الآية، ويُعرف المقصود منها، فقد ذكر في سبب نزولها، أن أهل بيت سرقوا في المدينة، فلما أُطْلِعَ على سرقتهم، خافوا الفضيحة، وأخذوا سرقتهم فرموها في بيت من بريء من ذلك، واستعان السارق بقومه أن يأتوا رسول الله (ﷺ)، يطلبوا منه أن يُبرئ صاحبهم على رؤوس الأشهاد، وقالوا له: إنه لم يسرق، وإنما الذي سرق من وُجِدَتْ السَّرقة في بيته، فهم النبي (ﷺ) أن يُبرئ صاحبهم، فأنزل الله هذه الآيات. (١٢٤)

فالله - سبحانه وتعالى - في هذه الآيات يذكر نبيه (ﷺ) بهذه الحادثة، ممتناً بفضلِهِ عليه، ومؤكداً له رحمته به، ومحذراً إياه من المخاصمة عن الخائنين، والدفاع عنهم. (١٢٥)

والمعنى: لولا فضل الله عليك، ورحمته بك - بما أوحى إليك، فقد أعلمك أمر السارق - لهمت طائفة منهم أن يُضْلوك، ولكن بفضل الله عليك ورحمته بك جنبك أن تعمل ما همت به هذه الطائفة، وسعت به، وحرصت عليه. (١٢٦)

ولا يخفى ما في هذه الآية من إعلام النبي (ﷺ) بلطف الله به، وحفظه له، وليس هذا الحفظ له، واللطف به خاصاً في هذه الحادثة، بل هو عام في كل أمر من أموره (ﷺ). (١٢٧)

إذن فهذه الآية تتجه في خطابها إلى رسول الله (ﷺ)، وتحادثه بها، وتذكر لطفه - سبحانه - به، وحفظه له، ومن هنا نرى ملامح هذا الأسلوب وخصائصه في حديث القرآن عن القرآن في العهد المدني، فقد اقتضى المقام هذا الأسلوب وحثمه، إذ

(١٢٤) انظر: أسباب النزول: ١٠٣ .

(١٢٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن: ١ / ٤٠٥ .

(١٢٦) انظر: معاني القرآن وإعرابه: ٢ / ١٠٤ .

(١٢٧) انظر: المحرر الوجيز: ٢ / ١١٢ .

المخاطب بهذه الآية رسول الله (ﷺ)، فإذا كان الغرض من هذه الآية إظهار فضل الله ومنته على رسول الله (ﷺ)، وكان المخاطب بها هو رسوله (ﷺ) فما ظنك بما سيكون عليه أسلوب هذه الآية، فليس ثمة تقريع ولا توبيخ، ولا وعيد أو تهديد، كلا بل إنك لتشعر باللطف والحفظ والرعاية تفيض بها كلمات الآية كلها.

لذا فإن الآيات التي تخاطب رسول الله (ﷺ) في حديث القرآن عن القرآن - بل في القرآن بعامه - تشكل ظاهرة أسلوبية، تميزت بها عن غيرها، وتفردت بها، فلها سماتها الخاصة الموضوعية والأسلوبية التي لا يشاركها في ذلك غيرها، وهذه الآيات جديرة بالنظر والتأمل، والوقوف عند دقائق نظمها، وأسرار بلاغتها، ولهجة خطابها كذلك.

والتأمل لهذه الآية ونظمها يجد أن الله - سبحانه وتعالى - نفى عن رسول الله (ﷺ) همّ الأقوام به - كما يُشير إلى هذا المعنى حرف الشرط (لولا)، فهو حرف امتناع لوجود، فقد امتنع الهم لوجود فضل الله ورحمته برسوله (ﷺ) مع أن القوم قد همّوا بإضلال النبي (ﷺ)، وسعوا بذلك، فالهم قد وقع منهم، وقد أُجيب عن هذا الإشكال بأن المراد من نفى هذا الهم هو نفى أثره وضرره على رسول الله (ﷺ). (١٢٨)

وتتجلى بلاغة هذا التعبير أن فيه إيذاناً بانتفاء تأثير هذا الهم بالكلية عن رسول الله (ﷺ)، فوجوده كعدمه، فإذا كان أصل هذا الفعل منتفياً - وهو الهم - فما بالك بنتائجه وما يترتب عليه، كما أن هذا التعبير أدل على لطف الله بنبيه (ﷺ) ورعايته له، وحفظه إياه، وهو أدل على غرض هذه الآية، وهو إظهار منة الله بعبده، وتذكيره بها.

والمراد بالفضل والرحمة هنا القرآن الكريم، يدل على هذا قوله تعالى :

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (يونس - ٥٨)

ففضل من الله ورحمة برسوله (ﷺ) أن أنزل عليه هذا الكتاب العظيم، فهو منة عظمت منه - سبحانه - لهذا الرسول الكريم (ﷺ)، بل هي منة على البشرية كلها، إذ به خرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد. (١٢٩)
ثم بين تعالى في قوله : (وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ) أن هم هؤلاء القوم وكيدهم لا يعود ضرره إلا على أنفسهم، ولا يضررون بهذا الهم رسول الله (ﷺ) أبداً.

وقد جاءت هذه الجملة (وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ) معترضة بين قوله : (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ) وقوله : (وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ) والغرض من هذه الجملة: التنبيه على ما تضمنته من المعاني، والإشارة إليها وتأكيدا، والدلالة على أن وبال أمرهم عائد عليهم بالوبال والخسران؛ لأنهم هم الذين يعملون عمل الضالين.

وفي إيراد المعنى بأسلوب القصر تأكيد لهذا المعنى، وتحقيق له، فقد قصر الضلال الناتج من همهم، وسوء صنيعهم عليهم هم وحدهم دون أن يمس ذلك الهم رسول الله (ﷺ)، وفي مجيء هذا القصر بهذا الطريق دلالة وإيحائه في هذا المقام، فمع أن المعنى الذي أداه هذه القصر، وقام به من الأمور المسلم بها التي لا نزاع فيها ولا جدال، فكان من المتبادر إلى الأذهان أن يأتي القصر بطريق (إنما) دلالة على هذا المعنى، وإشارة إليه، ولكن جاء القصر بطريق النفي والاستثناء إيماء إلى حال أولئك المنافقين، وإشارة إلى ما في نفوسهم، فوجود هذا الهم منهم، وتكرر حدوثه كأنهم ينازعون في هذه القضية، فكأنهم يرون أن لهمهم هذا أثراً على رسول الله (ﷺ)، وضرراً به، ومن هنا جاء القصر بهذا الطريق إشارة إلى هذا المعنى، والله أعلم.

ووجه كون أثر هذا الإضلال عائداً عليهم دون رسول الله (ﷺ)؛ « لكون ذلك

المكر، وذلك التحيل لم يحصل لهم فيه مقصودهم، ولم يحصل لهم إلا الخيبة والحرمان والإثم، والخسران، وهذه نعمة عظيمة وكبيرة على رسول الله (ﷺ)». (١٣٠)

وفي قوله : (وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ) تأكيد وتقرير لما تضمنه القصر في قوله : (وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ) ، وذلك لما يتضمن القصر في طياته من نفي وإثبات ، ففي إثبات الإضلال والضرر على هؤلاء المنافقين، نفي له عن رسول الله (ﷺ) ، ومن هنا كانت هذه الجملة تأكيداً وتقريراً لمضمون القصر .

وفي هذا دلالة على عظم ما تضمنته جملة (وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ) من المعاني، ولا أدل على هذا من تأكيدها وتقريرها، وذكرها مرتين، ولا عجب أن يؤكد هذا المعنى ويكرر وذلك أن في طياتها امتنانه - سبحانه - على رسوله (ﷺ) بتأييده إياه في جميع الأحوال والظروف، وإخباراً له بعصمته له. (١٣١)

كما أن فيها وعداً منه - سبحانه - لرسوله (ﷺ) بالعصمة له في مستقبل أيامه، وبياناً أنهم لن يضرّوه أبداً لا في كثير ولا في قليل من أمره، كما يشير إلى هذا المعنى، ويدل عليه حرف الجر (مِنْ) في قوله (مِنْ شَيْءٍ) ففيه دلالة على العموم بالنفي القاطع. (١٣٢)

وبعد أن ذكر - سبحانه - تعالى - منته على رسوله (ﷺ) ، بحفظه له، وبرّد كيد الكائدين، ومكرهم في نحورهم، ذكر بعد هذا نعمته عليه ومنته الكبرى وهي إنزال القرآن في قوله : (وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) (١٣٣) ولما كانت هذه المنّة - وهي إنزال القرآن - دليلاً على علو مكانة مَنْ نزل عليه القرآن، وعلو قدره، جاء التقديم في قوله (عَلَيْكَ) إشارة إلى هذا المعنى، وتأكيده له، كما أن عظمة من نزل عليه القرآن، وسمو قدره دليل - أيضاً - على عظم هذا المنزل، وجلالة قدره، إذ لا ينزل على

(١٣٠) تيسير الكريم الرحمن: ١ / ٤٠٥ .

(١٣١) انظر: تفسير القرآن العظيم: ١ / ٦١٠ .

(١٣٢) انظر: البحر المحيط: ٣ / ٣٦٢ .

العظماء من الرجال إلا الأمر العظيم، يدل على هذا المعنى - أيضاً - منته - سبحانه - على عبده بهذا الإنزال، فهو - سبحانه - لا يمتن إلا بأمر عظيم جليل .

ولما كان الحديث في هذه الآية عن منّة الله على رسوله (ﷺ) بإنزال القرآن ناسب في هذا المقام أن يُسند نزول القرآن إلى لفظ الجلالة في قوله : (وَأَنْزَلَ اللَّهُ) دون إسناده إلى ضمير التعظيم إذ لم يقل (وأنزلنا) كما هو الشأن في مواضع كثيرة في حديثه - سبحانه - عن إنزال القرآن، فقد ناسب في هذا المقام أن تربط هذه المنّة والنعمة العظيمة بمن أسداها، وتفضل بإنزالها، حتى يُذكر فيُشكر عليها، كما أن في التصريح بلفظ الجلالة تربية للنفوس على مهابته، وغرس عظمتها فيها .

وقد امتن - سبحانه - على رسوله (ﷺ) بإنزال هذا الكتاب العظيم، الجامع لخيري الدنيا والآخرة، الذي فيه بيان كل شيء، والهدى والرحمة لمن تمسك به، وآمن به وعمل بما جاء فيه، ومن تمام منته - سبحانه - على رسوله (ﷺ)، وسابغ نعمته عليه أن آتاه مع القرآن الحكمة، وهي السنة التي فصلت ما أجمله القرآن، وبيّنت ما كان فيه مبهماً (١٣٣) .

ثم أتم - سبحانه - نعمته على رسوله (ﷺ)، وأسبغها عليه بأن علمه ما لم يكن يعلم من خبر الأولين والآخرين، وما يكون وما هو كائن إلى يوم الدين . (١٣٤)
وقد دلّت منّة الله عليه بالعلم على عظمة هذا العلم وشرفه، وسعته وشموله، فقد كان (ﷺ) قبل هذا العلم وقبل هذه الرسالة، وقبل إنزال القرآن عليه كما وصفه ربه في قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى - ٥٢) ، وقوله : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ (الضحى - ٧)

(١٣٣) انظر: تفسير القرآن العظيم: ١ / ٦١٠ .

(١٣٤) انظر: جامع البيان: ٥ / ٢٧٥ .

(١٣٥) تيسير الكريم الرحمن: ١ / ٤٠٦ .

كذا كان (ﷺ) قبل الرسالة والقرآن، « ثم لم يزل - سبحانه - يوحي إليه، ويُعَلِّمُه ويكَمِّلُه حتى ارتقى مقاماً من العلم يتعذر وصوله على الأولين والآخرين، فكان أعلم الخلق على الإطلاق، وأجمعهم لصفات الكمال، وأكملهم فيها »^(١٣٥).
ثم ختم - سبحانه وتعالى - هذه الآية بقوله: (وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً) وفي ذكر هذه المنن وتعدادها دلالة على الفضل العظيم الذي غمر الله به نبيه (ﷺ)، وخصه بها دون سائر الخلق أجمعين، ومن هنا جاءت الخاتمة إشارة إلى هذا المعنى، وتأكيداً له.

وقد جاء نظم الجملة مشيراً إلى عظمة هذا الفضل وقدره، يتجلى ذلك في قوله (فَضْلُ اللَّهِ) ففي الإضافة إشارة إلى عظمة هذا الفضل، وجليل قدره، وعظيم نفعه، وأثره على رسول الله (ﷺ)، فإن الشيء يعظم بالنظر إلى ما يُضاف إليه، وقد أُضيف الفضل هنا إلى الله فحسبك به قدراً ونفعاً.

كما أن تنكير لفظة (عَظِيماً) دلالة على عظم هذا الفضل، وجلالة قدره، فقد أفادت الإضافة تفخيم هذا الفضل، وتعظيم شأنه، فهو فضل « لا تحويه عبارة، ولا تحيط به إشارة، ومن ذلك النبوة العامة، والرئاسة التامة، والشفاعة العظمى يوم القيامة »^(١٣٦). وكيف لا يكون فضله - سبحانه - عليه عظيماً، وقد أنزل عليه القرآن، وهو المنة العظيمة، والمنحة الربانية الجزيلة، ولا يخفى أن ذكر القرآن هنا في معرض الحديث عن رسول الله (ﷺ)، وذكر منته عليه يأنزال هذا الكتاب في هذا دعوة غير مباشرة للالتفات نحو القرآن، والإقبال عليه قراءة وحفظاً وتأملًا وتدبراً، والنهل من معينه، وذلك أن القرآن هو منته - سبحانه - على رسوله (ﷺ)، وعلى الناس أجمعين، فهو « منة الله على الإنسان في هذه الأرض، المنة التي وُلد الإنسان معها ميلاداً جديداً، ونشأ بها الإنسان كما نشأ أول مرة بنفخة الروح الأولى، المنة التي التقطت البشرية

(١٣٦) روح المعاني: ٥ / ١٤٤ .

(١٣٧) في ظلال القرآن: ٢ / ٧٥٦ .

من سفح الجاهلية، لترقى بها في الطريق الصاعد إلى القمة السامقة، عن طريق المنهج الرباني الفريد العجيب، المنة التي لا يعرف قدرها إلا الذي عرف الإسلام وعرف الجاهلية، وذاق الإسلام، وذاق الكفر، وإذا كانت هذه المنة يُذكر الله بها رسوله (ﷺ)؛ فلأنه أول من عرفها وذاقها، وأكبر من عرفها وذاقها، وأعرف من عرفها وذاقها». (١٣٧)

وفي تعظيم هذا الفضل، وتفضيم شأنه وقدره إشارة إلى عظم من تُفضل عليه، وبيان لعلو قدره، وسمو منزلته، فقد خصه ربه بالنعم الكثيرة، فأرسله للناس كافة، وجعله خاتم الأنبياء والرسل، ويعظم - بعظم النعمة - شكرها، فمن كان هذا حاله وشأنه وجب أن يكون أعظم الناس شكراً، وأكثرهم لربه حمداً، وكذلك كان رسول الله (ﷺ)، فقد كان عبداً شكوراً، يقوم حتى تتفطر قدماءه، ويصوم حتى يقول الناس: إنه لا يفطر، ويستغفر ربه في المجلس الواحد أكثر من سبعين مرة، بل وكذلك حال الأمة التي أرسل إليها هذا الرسول، ونزل عليها هذا الكتاب يجب أن تكون - بهذا الفضل - خير أمة أخرجت للناس، وأن ترفع بهذا القرآن رأساً، وأن تقود البشرية، وتدعو الناس إلى الإيمان والقرآن. (١٣٨)

وقد جاء تقديم الجار والمجرور (عَلَيْكَ) على (عَظِيمًا) إشارة إلى علو قدر من خصه ربه بهذا الفضل، وسمو منزلته، كما أن في هذا التقديم إشارة إلى أنه مدار الحديث في هذه الآية، فليان قدره، وعناية بأمره وشأنه، واهتماماً بما من الله به عليه جاء تقديمه في هذا السياق إشارة إلى هذه المعاني كلها.

وبعد فالتأمل لأسلوب هذه الآية يجد أن الله - سبحانه وتعالى - أبرز هذا المعنى المراد تحقيقه وبيانه بهذا الأسلوب المشعر باللفظ والرعاية منه برسوله (ﷺ)، فجاء إيقاع هذه الآية هادئاً، لا تجد فيه الألفاظ الصاخبة المجلجلة، ذات الإيقاع القوي. (١٣٩)

(١٣٨) انظر: تفسير المنار: ٥ / ٤٠٢.

(١٣٩) وكان في هذا الأسلوب درساً للأمة، وبياناً للطريقة التي تخاطب بها رسول الله (ﷺ)، فهي بحضرة رسول كريم، فلا ترفع عنده الأصوات، فلا صخب ولا ضجيج في هذا المقام مقام النبوة.

كما أننا حين نتأمل أسلوب هذه الآية ونظمها نجد أن الله - سبحانه وتعالى - يذكر منته على رسوله (ﷺ) ، ويذكره بها بضمير المخاطب، فهي خطاب منه لرسوله، فقد ورد هذا الضمير في الآية خمس مرات (عليك، يضلوك، عليك، علمك، عليك)، والمخاطبة بهذا الضمير أبلغ - ولا شك - في إظهار هذه المنة، وتذكيره بها، كما أن في هذا الأسلوب مزيداً من إظهار اللطف به والعناية بشأن الرسول العظيم .

ومن خلال إنعام النظر في ألفاظ هذه الآية وأساليبها تتجلى خصائص هذه الآية الموضوعية والأسلوبية في حديث القرآن عن القرآن في العهد المدني، من خلال هذه الآية التي ذكر - سبحانه وتعالى - فيها منته على رسوله (ﷺ) (ينزال هذا القرآن عليه).

بل لو تتبعنا الآيات في حديث القرآن عن القرآن في كلا العهدين على حدة في خطابها مع رسول الله (ﷺ)، وأنعمنا النظر فيها تدبراً وتأملاً لوجدنا أن لهذه الآيات طابعاً مميزاً.

وسمات خاصة بها تميزها عن غيرها في خصائصها الموضوعية والأسلوبية، وإن الآيات بهذه الخصائص التي تفردت بها لجديرة بالدراسة والنظر.

نموذج تحليلي من سورة الحشر:

وفي موضع آخر - ومع حديث القرآن عن القرآن، في العهد المدني - يبين - سبحانه - عظم القرآن، ذاكراً علو قدره، وأنه مما ينبغي أن تخشع له القلوب عند سماعه، وأن تتصدع منه لما فيه من الوعد الحق، والوعيد الأكيد، والزجر الشديد^(١٤٠)، يقول - سبحانه - : ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَشِيعًا مُّتَصَدِّعًا

مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الحشر - ٢١)

في ابتداء الآية بالأداة الشرطية (لو) دلالة على أن القرآن لم ينزل على

(١٤٠) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٥ / ٣٦٢ .

جبل، فهو حرف امتناع لامتناع، فقد امتنع خشوع الجبل وتصدعه لامتناع نزول القرآن عليه، ومقامات هذه الأداة وسياقاتها أنها تأتي في الشروط التي على سبيل الافتراض والمثال^(١٤١)، يدل على هذا قول ابن عباس - رضي الله عنه وأرضاه - : « كل شيء في القرآن (لَوْ) فإنه لا يكون أبداً »^(١٤٢)، فالقرآن إذن لم ينزل على جبل، وإنما هو مثل ذكره - سبحانه - توبيخاً لكل من قسا قلبه، وقلّ تدبره وخشوعه عند تلاوة القرآن، وسماعه لزواجه وقوارعه.^(١٤٣)

كما أن في هذا المثال - الذي ذكره - سبحانه - لكتابه العظيم - ذماً لكل من غفل عن القرآن، وأعرض عنه، وتعجباً من حاله المعرضة عن التدبر، مع ما فيه من موجبات التدبر، من قوة ألفاظه، وسبك معانيه، وما اشتمل عليه من المواعظ التي تلين القلوب وترققها.^(١٤٤)

وفي الإشارة إلى القرآن بالأداة القريبة (هذا) دلالة على قرب القرآن منهم، فهو غير بعيد عنهم، بل هو في متناولهم جميعاً، وليس ثمة من كلفة عليهم ولا مشقة في تلاوته وتدبره، فكيف - وهذا حاله - يُعرضون عنه، ويتركون قراءته، والنظر فيه تأملاً وتدبراً؟!^(١٤٥)

والعجب في هذا المثال الذي تضمن ذمّ العقول في إعراضها عن هذا الكتاب العظيم، وتركها تدبره وتأمله، ومن ثم الخشوع لزواجه وقوارعه، وتصدع القلوب منه، وانفطارها له، العجب في هذا أن هذه الآية مدنية، فهي تخاطب المؤمنين الصادقين، ونعلم جميعاً حالهم مع القرآن، وموقفهم منه، بل والأعجب من هذا أن جميع الآيات في حديث القرآن عن القرآن - التي تأمر بتدبر القرآن، وتنهي عن الإعراض عنه، بل وتوبخ وتُنكر من عدم تدبر القرآن - أن هذه الآيات

(١٤١) انظر: التحرير والتنوير: ٢٧ / ١١٦ .

(١٤٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن: ٢ / ٢٩٥ .

(١٤٣) انظر: الكشف: ٨٧ / ٤ .

(١٤٤) انظر: فتح القدير: ٥ / ٢٠٧ .

(١٤٥) انظر: التحرير والتنوير: ٢٧ / ١١٦ .

كلها نازلة في العهد المدني، فقلوه تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَأْمُرْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْقَالُهَا ۖ ﴾ (محمد - ٢٤) ، وقلوه : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَأْمُرْ أَنْ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۖ ﴾ (النساء - ٨٢) ، وقلوه : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (الحديد - ١٦)

فهذه الآيات كلها بالإضافة إلى الآية التي في سورة (الحشر) آيات مدنية، وثمة آيتان فيها إشارة إلى تدبر القرآن، نزلتا في العهد المكي، وهما قوله :

﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (ص - ٢٩)

ففي هذه الآية الإشارة إلى الغرض من نزول القرآن، وهو تدبره، والآية الثانية قوله :

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون - ٦٨)

فهذه الآية صريحة في الإنكار عليهم في عدم تدبرهم القرآن، وما عدا هاتين الآيتين فقد اختص العهد المدني في حديث القرآن عن القرآن بالأمر بتدبر القرآن، والإنكار عليهم الإعراض عنه، وترك تدبره .

تأملتُ هذا الأمر ملياً لعلني أظفر بتعليل لهذا الظاهرة، وسبب موجب لها، فما الحكمة في ورود هذه الآيات كلها أو جلها في العهد المدني؟ مع أن المتبادر إلى الأذهان أن يكون الواقع خلاف ما هي عليه، بمعنى أن يكون الأمر بتدبر القرآن، والإقبال عليه، والإنكار على من أعرض عنه، وترك تدبره في العهد المكي؛ لوجود المشركين في هذا العهد، إذ لا يخفى موقفهم من القرآن، وشدة إعراضهم عنه، وتكذيبهم له، فضلاً عن تدبره وتأمله.

وبعد النظر في ترتيب نزول السور التي وردت فيها تلك الآيات تبين أن أول السور نزولاً سورة (النساء)، إذ تُعد من أوائل ما نزل في المدينة، ثم تلاها في

النزول سورة (الحديد)، ولم يكن بين نزول هذه السورة والتي قبلها إلا سورة واحدة، ثم تلاها في النزول سورة (محمد)، وقد نزلت هذه السورة بعد سورة الحديد مباشرة، ثم نزلت أخيراً سورة (الحشر)، وتُعد هذه السورة من أواسط ما نزل في العهد المدني، وإن كانت تميل قليلاً إلى أواخر ما نزل في المدينة. ^(١٤٦)

ومن خلال ترتيب هذه السور في نزولها تبين لي سبب ورود هذه الآيات في العهد المدني في حديث القرآن عن القرآن، فقد يكون السر في هذا - والله أعلم - أن الله - سبحانه وتعالى - أراد أن يُخلّص المؤمنين من أدنى شائبة من شوائب الغفلة والإعراض، وأن يجعلهم على صلة وثيقة بالقرآن الكريم قراءة وتدبراً، فقد بدأ - سبحانه - وأعاد في هذا الأمر ليكون هذا حال المؤمنين دائماً وأبداً مع القرآن.

وكأن في هذا إشارة إلى أن المؤمن محيط به عدوه من جميع جوانبه، فالنفس الأمارة بالسوء بين جنبيه، والشيطان يجري في عروقه مجرى الدم، ناهيك عن أعداء دينه الذين يواجهونه ويجابهونه، وهؤلاء كلهم يسعون في صده وإعراضه عن القرآن - الذي هو مصدر عزته، ومكمن قوته - ومن ثمَّ الغفلة عنه، وترك قراءته، فضلاً عن تدبره والخشوع من قوارعه وزواجه، والمسلم على خطر كبير من الانسياق لهؤلاء الأعداء كلهم، والجري خلفهم، ولا مخلص له - بعد الله - إلا الاعتصام بالقرآن، والإقبال عليه قراءة وتدبراً.

كما أن الله - سبحانه وتعالى - أراد أن تتربى هذه الجماعة المؤمنة على القرآن، وأن يقوم أساسها وعمادها عليه، وألاً تغفل عنه طرفة عين، ومن هنا جاءت هذه الآيات، وتتابع نزولها على امتداد الفترة المدنية كلها، ومن هنا جاء الأمر بتدبر القرآن في العهد المدني في حديث القرآن عن القرآن، إشارة إلى هذه المعاني كلها، ولتحقيقها، والله أعلم بأسرار كتابه.

ثم ذكر - سبحانه - الحال التي سيكون عليها الجبل لو نزل عليه القرآن في قوله :

(لَرَأَيْتُهُ خَشِيعًا مُتَّصِدًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)، والخطاب في قوله (لَرَأَيْتُهُ) لغير معين، فيعم كل من يسمع هذا المثل الذي ضربه - سبحانه - لبيان عظمة القرآن، ويشمل - كذلك - كل من يتأتى منه الخشوع لدى سماع القرآن ^(١٤٧)، وكون الخطاب في هذه الآية لغير معين مما يزيد قوة إيقاعها، وشدة وقعها في نفوس السامعين .

ومجيء الآية بهذا الخطاب وبهذا العموم يزيد من عظمة القرآن؛ وذلك أن في هذا المثل دلالة على أن القرآن قد بلغ من التأثير مبلغاً لا مزيد عليه، فلو فرض إنزاله على جبل لتأثر ذلك الجبل بأبلغ الأثر، ولخشع من هذا القرآن وتصدع .

فهذه الجبال على عظمتها، وقسوتها، وشدة صلابتها، وضخامة جرمها، فلو نزل القرآن على هذه الجبال - وهذه صفتها - لتأثرت بالقرآن متذلة مستكنة مطأطأة، مُنْكَسَّة أعلاها إلى الأرض ^(١٤٨)، ثم هي - أيضاً - متصدعة من هذا القرآن، متشقة من قوارعه وزواجره، متزلزلة مضطربة من سماعها لهذا القرآن؛ لشدة ثقله عليها، ولخوفها وخشيتها من الله خوفاً من عقابه، وحذراً من بأسه ألا تؤدي حق الله الذي فرض عليها من تعظيم للقرآن، والتأثر به. ^(١٤٩)

وفي بيان حال الجبل لو نزل القرآن عليه تحقيق للغرض الذي سيقى له هذه الآية، ولهذا المثل الذي ضربه - سبحانه وتعالى - لبيان عظمة كتابه، وشدة قوارعه وزواجره، وذلك أن المعنى أن الله - سبحانه وتعالى - يقول: هذا هو حال الجبل - على عظمتها - لو نزل القرآن عليه، أما ابن آدم، فما زاده نزول القرآن عليه إلا عتواً ونفورا، واستكباراً وإعراضاً، مستخفٌ بما جاء فيه من العبر، معرض عنها، كأن لم يسمعها، كأن في أذنيه وقراً ^(١٥٠)، وذلك لشدة قسوة قلبه، ولتحكم الغفلة فيه، وتمكنها منه، ولتلاعب الشيطان به، والعياذ بالله، فإذا كان هذا هو حال الجبل مع القرآن، فما بال ابن آدم يعرض ويصد على حقارته وضعفه؟!

(١٤٧) انظر: التحرير والتنوير: ٢٧ / ١١٧ .

(١٤٨) انظر: المصدر السابق: ٢٧ / ١١٧ .

(١٤٩) انظر: جامع البيان: ٢٨ / ٥٣، و: فتح القدير: ٥ / ٢٠٧ .

(١٥٠) انظر: جامع البيان: ٢٨ / ٥٣ .

وهكذا من خلال ضرب هذا المثل يتبين غرض هذه الآية، ويتجلى أتم تجلية، وهو توبيخ المعرض عن القرآن، وبيان شدة قسوة قلبه، لعدم تأثره من القرآن، وتدبره له.

المتأمل لهذا المثل الذي ذكره - سبحانه - لبيان عظمة القرآن، يجد أنه مُنتزع من صميم البيئة التي نزل فيها القرآن، فالجبال أمام أعينهم، تترأى أمامهم حيثما حلوا وارتحلوا، فقد نزلت هذه الآية في المدينة على المهاجرين والأنصار، فأما المهاجرون فقد ألقوا رؤية الجبال ومشاهدتها، إذ تحيط الجبال بمكة من جميع جوانبها، وأما الأنصار فما أكثر الجبال القريبة جداً من المدينة، إذن فالجبال مشهد مألوف لهم، يعرفون حقيقتها، ويدركون ما تتميز به من القوة والصلابة، إذن فقد وُظفت مظاهر الطبيعة في حديث القرآن عن القرآن، في ضرب الأمثال، وذكرها للاتعاظ والادكار.

وبعد أن بينّ - سبحانه - حال الجبل وما سيكون عليه أمره لو نزل القرآن عليه، ذكر بعد ذلك الغاية من ضرب المثل والحكمة منه في قوله: (وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٥١﴾) إذن فهذه هي الغاية من ضرب هذا المثل، هو أن يتفكر هؤلاء القوم في حالهم مع القرآن، ويتدبروا أمرهم وشأنهم فيه، فقد جعل - سبحانه - الأمثال في القرآن تبصرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. (١٥١)

وفي مجيء لفظة (يَتَفَكَّرُونَ) فعلاً مضارعاً دلالة على تجدد هذا التفكير، وتكرر حدوثه، ووقوعه منهم، فهذا هو المراد منهم، وهذا هو المؤمل فيهم أن يكون هذا حالهم مع القرآن، يجددون النظر فيه، ويطلقون تأمل سورة وآياته، ويقفون مع قوارعه وزواجره، ويحركون به كل ساكن.

كما أن في حذف متعلق (يَتَفَكَّرُونَ) دلالة على هذا المعنى، فالمراد منهم أن

يتفكروا في كل ما جاء في القرآن، وألاً يقصروا نظرهم وفكرهم على شيء دون آخر، بل يتفكرون في كل شيء، نعم في كل شيء مما ورد في هذا الكتاب، وليس ثمة أنفع للعبد من التفكير في القرآن، ومن النظر في معانيه وتأملها، فإن هذا التفكير والتدبر يفتح له خزائن العلم، ويبين له طريق الخير ليسلكها، وطرق الشر والغواية ليتجنبها، ويكون على بينة منها وحذر. (١٥٢)

والعجب في غاية هذا المثل الذي ضربه - سبحانه - لبيان عظمة كتابه أن كانت الغاية منه تفكر الناس جميعاً به، فتأمل كلمة (لِلنَّاسِ) فلم يقل مثلاً (لِلْمُؤْمِنِينَ) مع أن هذه الآية مدنية، وما تتميز به الآيات المدنية بعامة كثرة النداء بـ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)، بخلاف الآيات المكية التي كثر النداء فيها بـ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ)، فكان المتبادر إلى الذهن أن تأتي لفظة (المؤمنين) بدلاً من لفظة (الناس)؛ وذلك لنزول هذه الآية في المدينة، وعلى قوم مؤمنين، ولكن في مجيء هذه اللفظة (لِلنَّاسِ) دلالة على أن هذه الأمثال التي يذكرها - سبحانه - في كتابه أنها للناس جميعاً على حد سواء مؤمنهم وكافرهم، وذلك لعظمة ذلك المثل، وشدة وقوعه في النفوس، فالتدبر والتفكر مطلوب منهم جميعاً، فأما المؤمنون لكي يزدادوا إيماناً بهذا القرآن مع إيمانهم، وتدبراً له وتفكيراً، وأما الكافرون فلعل وعسى أن يتعظوا بهذه الأمثال، وينزجروا عما هم فيه من التكذيب والإعراض، وأن يُقْبِلُوا على القرآن إيماناً به وتصديقاً، ولتقوم الحجة على الجميع، وليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، ولو خُصص هذا المثل بطائفة دون أخرى لذهبت عظمة هذا المثل، ولتلاشت هذه العظمة التي نَجدها في نفوسنا ونحن نقرأ هذه الآية، أو حين تُتلى على مسامعنا.

وثمة ملحظ مهم في هذه الآية، له دلالة في حديث القرآن عن القرآن في العهد المدني، وهو قوة ألفاظ هذه الآية، وشدة وقعها، وهذا هو المناسب تماماً لما في طيات هذه الألفاظ من القوارع والزواجر، الذي يتلاءم مع غرض الآية، فقد

جاءت لتوبيخ ما عليه القوم من الإعراض والغفلة، وعدم التدبر للقرآن، وإنكاراً لذلك الواقع والحال.

وهذا الملحظ يُرشدنا أن القرآن في العهد المدني يخاطب قوماً مؤمنين، فتأتي عباراته هادئة، وأساليبه رقيقة لينة إلا أنها تخرج عن هذا الإطار أحياناً، فتأتي مغايرة لهذا الأسلوب تماماً، فتأتي شديدة الوقع، تهدد وتوعد، وتنكر وتوبخ، وذلك لتحقيق أغراض ترجو حصولها من هذا الأسلوب، وفي ذلك ملاءمة للأحوال المحيطة بنزول هذه الآيات، وأحوال المخاطبين بها، كما يتجلى هذا الملحظ في هذه الآية.

وقد أشار سيد قطب في حديث عن هذه الآية، إلى هذا الملحظ مبيناً إيقاع هذه الآية، وشدة وقعها قائلاً: « ثم يجيء الإيقاع الذي يتخلل القلب، ويهزه، وهو يعرض أثر القرآن في الصخر الجامد لو تنزل عليه، وهي صورة تمثل حقيقة، فإن لهذا القرآن لثقلاً وسلطاناً وأثراً مزلزلاً لا يثبت له شيء يتلقاه بحقيقته... والذين أحسوا شيئاً من مس القرآن في كيانهم يتذوقون هذه الحقيقة تذوقاً لا يعبر عنه إلا هذا النص القرآني المشع الموحى (وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٥٣﴾) وهي خليقة بأن توقظ القلوب للتأمل والتفكير. » (١٥٣)

وبعد: فهذه هي خصائص الآيات المدنية الموضوعية والأسلوبية في حديث القرآن عن القرآن، كما تجلت من خلال الآيات التي وقفنا معها وقفة تأمل وتدبر؛ للنظر في خصائصها، ولسبر غورها في الوقوف على أبرز سمات المجتمع المدني، من خلال موقف هذا المجتمع - على تعدد طوائفه - مع القرآن الكريم، وقد جاءت هذه الخصائص مجلية موقف هذا المجتمع مع القرآن الكريم، ومبينة حالهم معه، كما جاءت هذه الخصائص محققة أغراضه، ومتوافقة مع ظروف هذه المرحلة، ومع طبيعتها.

الخاتمة

وبعد هذا التطواف المبارك مع هذه الآيات، وبعد هذه الصحبة الطيبة لآيات حديث القرآن عن القرآن، أجدني مضطراً لكبح زمام قلبي المتدفق في حديثه الماتع عن مضمون هذه الآيات وخصائصها الموضوعية والأسلوبية، فها أنا أوقف قلبي، وألوي عنانه من الجموح، والسير خلف روعة هذه الآيات، فلكل بداية نهاية، ولكل عمل غاية، وهاهي نهاية هذا العمل، والغاية التي كنت أرنو الوصول إليها، والوقوف عندها، وثمة نتائج كثيرة أمكن الاهتداء إليها، والخروج بها من خلال هذه الدراسة، ومن أهمها مايلي:

أولاً: أن معرفة المكي والمدني تجعلنا ندرك الفروق الأسلوبية، والخصائص الموضوعية والتعبيرية للقرآن الكريم، ومن ثم الاستفادة من هذا المبحث في الدعوة إلى الله، وذلك أن هذا المبحث يُعطي الدارس المنهج في طريقة التعامل مع الناس على اختلاف أجناسهم، وتعدد مشاربهم وتنوعها.

فضلاً أن في هذا المبحث من الدلالة المباشرة على أن لكل مقام مقالاً، فلكل قوم ما يخصهم من الخطاب، ومن ثم يأتي الخطاب في كل الظروف والأحوال متلائماً مع مقتضيات الأحوال، مراعيّاً لها، وهل البلاغة إلا هذه.

ثانياً: أن أكثر آيات حديث القرآن عن القرآن نازلة في العهد المكي، والسبب في هذا أن الفترة التي قضاها النبي (ﷺ) في مكة تزيد على الفترة التي قضاها في المدينة، والسبب الثاني وهو الأهم أن القرآن من أكثر الموضوعات التي طال حوله نقاش المشركين، وكثر جدالهم فيه، فما أكثر ما تطاول عليه القوم، وافتروا فيه الافتراءات العظيمة.

ثالثاً: تجلت في الآيات المكية والمدنية في حديث القرآن عن القرآن كثير من الخصائص الموضوعية والأسلوبية لهذين العهدين، وقد جاءت تلك الخصائص منبثقة من واقع أولئك الأقوام، ومنطلقة منه، ومن ثم كانت تلك الخصائص مرآة تعكس حال القوم، وتجلي موقفهم من القرآن، وتبين ما هم عليه أتم بيان، كما

لم تكن تلك الخصائص مقصودة لذاتها، بل كانت وسيلة للكشف عما كان عليه القوم، وبيان حالهم مع القرآن، وموقفهم منه.

كما تُعدُّ هذه الخصائص الموضوعية والأسلوبية لآيات حديث القرآن عن القرآن في كلا العهدين وجهاً من أوجه إعجاز القرآن، الذي تميز به عن أساليب العرب كلها، بل والبشر أجمعين، فقد تعددت هذه الخصائص الأسلوبية وتنوعت تنوعاً يلائم طبيعة الموضوعات التي تناولتها كل فترة منهما، ويلائم - كذلك - طبيعة الأحوال والأجواء التي تنزلت فيها تلك الآيات، من حيث المخاطبون بها، والظروف التي تعيشها الدعوة في تلك الحقبة الزمانية والمكانية، وهذا - لعمرى - من أكبر الدلائل والشواهد التي تدل على أن القرآن قد بلغ الذروة في الجمال والروعة والإشراق، فكان بحق الكتاب المعجز.

رابعاً: تجلت في حديث القرآن عن القرآن في العهد المدني كثير من الآيات التي تتسم بشدة لهجتها، وقوة خطابها، وشدة قرعها وزجرها، خلافاً للطابع العام للآيات المدنية، والسر في بروز هذا الأسلوب في آيات حديث القرآن عن القرآن في العهد المدني أن كثيراً من هذه الآيات تخاطب أهل الكتاب، توبيخاً لهم على موقفهم من القرآن، وبيان لحالهم مع القرآن، وذكر لكتمانهم الحق، ولبسه بالباطل، فلا يناسب خطاب هؤلاء - وهذا موقفهم - إلا شدة الخطاب، وقوة العبارة، وشدة قرعها وجرسها، لعلهم أن ينزجروا عما هم عليه، ويقبلوا على القرآن، ويتركوا الإعراض عنه.

كما كان لوجود المنافقين في المدينة أثر في ظهور هذا الأسلوب، فالخطاب مع هؤلاء له طابعه الخاص المميز الذي يتوافق مع طبيعة نفوسهم، ويتلاءم كذلك مع موقفهم من القرآن الكريم، وحالهم معه، فمواقفهم من القرآن، وحالهم معه تستلزم قوة الخطاب، وشدة لهجته، عسى أن يكون في هذا الأسلوب زجر لهم، ورادع عما هم فيه من النفاق.

كما أن هذه الآيات في حديثها عن القرآن تتجه حيناً إلى المؤمنين توبيخاً

وتعجباً منهم، ومن حالهم مع القرآن، وهم المؤمنون به، كيف يتركون تدبره، وعدم النظر فيه، والإقبال عليه، وقد تمّ هذا العتاب للمؤمنين بأسلوب قوي جزل، يجتث القلوب من أماكنها، ليُحقق الغرض من ذلك العتاب، ويجعل هؤلاء المؤمنين يُقبلون على القرآن قراءة وتدبراً.

خامساً: أن الآيات التي تأمر بتدبر القرآن، وتنهى عن الإعراض عنه، بل وتُوبخ وتُنكر من عدم تدبره، هذه الآيات كلها نازلة في العهد المدني، مع أن المتبادر إلى الأذهان أن يكون الواقع خلاف ما هي عليه، بمعنى أن يكون الأمر بتدبر القرآن، والإقبال عليه، والإنكار على من أعرض عنه، وترك تدبره في العهد المكي؛ لوجود المشركين في هذا العهد، إذ لا يخفى موقفهم من القرآن، وشدة إعراضهم عنه، وتكذيبهم له، فضلاً عن تدبره وتأمله.

سادساً: أن آيات حديث القرآن عن القرآن في مخاطبتها لرسول الله (ﷺ) لها طابعها الخاص الذي يُميّزها عن غيرها، فلا تجد في هذا الخطاب تقريباً ولا توبيخاً، بل إن المتأمل لتلك الآيات يشعر باللطف والحفظ والرعاية تفيض من كلمات تلك الآيات، كما لا تجد في تلك الآيات ألفاظاً قوية مجلجلة، لذا فالآيات التي تخاطب رسول الله (ﷺ) في حديث القرآن عن القرآن، بل وفي القرآن بعامة تشكل ظاهرة أسلوبية تنفرد بها، وتتميز عن غيرها في خصائصها الموضوعية والأسلوبية، ومن هنا فإن هذه الآيات - بهذه الخصائص - جديرة بالنظر والتأمل والوقوف على دقائق نظمها، وأسرار بلاغتها، ولهجة خطابها كذلك.

سابعاً: أن المتتبع لحديث القرآن عن القرآن في العهد المكي يجد أنها - غالباً - تقتصر في حديثها على غاية نزول القرآن على الإنذار، فيكاد يكون هذا الملاحظ من الخصائص الموضوعية في حديث القرآن عن القرآن في هذا العهد المكي.

وفي الاقتصار على الإنذار في بيان غاية نزول القرآن في هذا العهد مطابقة لأحوال المخاطبين بهذه الآيات، وموافقة لطبيعة الدعوة في تلك المرحلة، ومواءمة مع الظروف المحيطة بها، وكشف لطبيعة تلك النفوس التي حُوطبت بهذه الآيات،

فلعلمهم إن تأملوا هذه النذر، وما جاء في طياتها من الوعيد والتهديد، لعلمهم إن تأملوها ووقفوا عندها أن تقودهم إلى الإيمان بالقرآن، وترك الكفر والإعراض، فيكون هذا الإنذار سبباً في هدايتهم، وهذا هو الغرض من إنزال هذا القرآن.

ثامناً: أن كثيراً من هذه الخصائص الموضوعية والأسلوبية لكل من المكي والمدني في حديث القرآن عن القرآن إنما هي خصائص غالبية، وسمة بارزة في كل واحد منهما، ولا يعني هذا أن خصائص كل عهد مقصورة عليه، وخاصة به، لا تتجاوزه أبداً إلى العهد الآخر، فلا يعني قولنا مثلاً: إن العهد المكي تتميز آياته بالشدة، وقوة الخطاب، أنه يخلو من الخطاب الهادي خفيف الوقع والإيقاع، أو أن الخطاب في العهد المدني تميز بلين الخطاب، وهدوء الإيقاع، لا يعني هذا خلو آياته تماماً من قوة الخطاب، وشدته ومن التهديد والوعيد، وقل مثل هذا في جميع الخصائص الأسلوبية لكل من العهدين.

وأما التوصيات التي أوصي بها في خاتمة هذه الدراسة، فهي ما يلي:

١- إن القرآن الكريم بحاجة إلى كثير من الدراسات البلاغية، فسيظل القرآن نبعاً فياضاً مع كثرة من توافر على دراسته، ونهل من معينه، لذا فإني أهيب بالباحثين أن يبحثوا في أسرار القرآن الكريم، وينظروا في وجوه إعجازه، ويغوصوا في أعماقه؛ تأملاً وتدبراً.

٢- كما أوصي - كذلك - بإفراد كل من الآيات المكية والمدنية بدراسات بلاغية مستقلة؛ للنظر في بلاغة كل عهد، وكيف جاءت آيات هذين العهدين متوافقة مع مقتضى طبيعة المجتمع الذي تنزلت فيه تلك الآيات، إذ يتجلى في هذين العهدين مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهذه هي البلاغة بعينها.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

وكتبه

الدكتور / عبد العزيز بن صالح العمار

فهرس المصادر والمراجع

- ١ . القرآن الكريم
- ١ . الإقتان في علوم القرآن، للسيوطي، تقديم وتعليق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير بيروت، ط الثانية: ١٤١٤ هـ.
- ٢ . إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٣ . أسباب النزول، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النسيابوري، شركة ومطبعة مصطفى البابي، ط الثانية: ١٣٨٧ هـ.
- ٤ . الإنصاف فيما تضمنه الكشف من الاعتزال، لابن المنير المالكي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط: ١٣٩٢ هـ.
- ٥ . أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لأبي سعيد عبدالله البضاوي، دار الفكر.
- ٦ . الإيضاح، للخطيب القزويني، إحياء الكتب الإسلامية بيروت.
- ٧ . البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود، والشيخ علي محمد معوض، ود. زكريا عبدالمجيد النوني، ود. أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى: ١٤١٣ هـ.
- ٨ . البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث.
- ٩ . البرهان في متشابه القرآن، لمحمود بن حمزة الكرمانى، قدم له وراجع على أصوله، وقوم نصوصه أحمد عز الدين عبدالله الخلف، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع في المنصورة، ط الأولى: ١٤١١ هـ.
- ١٠ . تأملات قرآنية: بحث منهجي في علوم القرآن الكريم، موسى بن إبراهيم الإبراهيم، الناشر: دار عمار، ط الأولى: ١٤٠٩ هـ.
- ١١ . التحرير والتنوير، للشيخ محمد بن طاهر بن عاشور.
- ١٢ . التعريف بالقرآن والحديث، محمد الزفزاف، مكتبة الفلاح الكويت، ط الثانية: ١٣٩٩ هـ.
- ١٣ . تفسير القرآن العظيم، للحافظ عماد الدين ابن كثير، قدم له عبدالقادر الأرناؤوط، دار السلام الرياض، ط الأولى: ١٤١٣ هـ.
- ١٤ . التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب، دار الفكر العربي.
- ١٥ . التفسير القيم، لابن القيم، تحقيق محمد الفقي، مكتبة السنة المحمدية.
- ١٦ . التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط الثالثة.
- ١٧ . تفسير القرآن الحكيم الشهير بالمنار، لمحمد رشيد رضا، دار المعرفة بيروت، ١٤١٤ هـ.
- ١٨ . تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تقديم: محمد النجار، تصحيح: محمد البسام، دار المدني بجدة، ١٤٠٨ هـ.
- ١٩ . جامع البيان عن تأويل أي القرآن، لابن جرير الطبري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط الثالثة.
- ٢٠ . الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد القرطبي، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار الكتاب العربي بيروت، ط الأولى: ١٤١٨ هـ.
- ٢١ . حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٢٢ . الحيوان، لأبي عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار إحياء التراث

٢٣. خصائص القرآن الكريم، د. فهد الرومي، ط الرابعة : ١٤٠٩ هـ.
٢٤. دراسات في القرآن والحديث، د. يوسف خليف، الناشر: مكتبة غريب القاهرة.
٢٥. دراسات في علوم القرآن، د. عبد القهار داود العاني، مطبعة المعارف، بغداد، ط الأولى: ١٩٧٢ م.
٢٦. دراسات في علوم القرآن الكريم، د. فهد بن عبد الرحمن الرومي، مكتبة التوبة، ط الأولى: ١٤١٤ هـ.
٢٧. دراسات في علوم القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، دار تفسير المنار، القاهرة، ط الأولى: ١٤١١ هـ.
٢٨. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لشهاب الدين محمد بن إبراهيم المعروف بالسمين، تحقيق وتعليق الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الجواد، ود. جاد مخلوف جاد، ود. زكريا عبد المجيد النوتي، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى: ١٤١٤ هـ.
٢٩. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط الرابعة: ١٤٠٥ هـ.
٣٠. شرح كلاوي ونعم والوقف على كل واحد منهن في كتاب الله عز وجل، لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: د. أحمد حسن فرحات، دار المأمون للتراث دمشق، ط الأولى: ١٣٩٨ هـ.
٣١. علوم القرآن الكريم، د. عبد المنعم عمر، دار الكتب الإسلامية، ط الثانية: ١٤٠٣ هـ.
٣٢. في ظلال القرآن، سيد قطب: دار العلم للطباعة والنشر جدة، ط الثانية عشرة: ١٤٠٦ هـ.
٣٣. في علوم القرآن دراسات ومحاضرات، د. محمد عبد السلام كفاقي، والأستاذ: عبد الله الشريف، دار النهضة العربية، بيروت، ط الأولى: ١٨٩١.
٣٤. الكشف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٩٢ هـ.
٣٥. مباحث في إعجاز القرآن، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين بيروت، ط ١٠.
٣٦. مباحث في علوم القرآن، د. مناع القطان، مؤسسة الرسالة بيروت، ط الثامنة عشرة: ١٤١٢ هـ.
٣٧. محاسن التأويل، لجمال الدين القاسمي، علق عليه وخرج آياته وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العلمية.
٣٨. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى: ١٤١٣ هـ.
٣٩. معالم التنزيل، للبغوي، إعداد وتحقيق: خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار، دار المعرفة بيروت، ط الثانية: ١٤٠٧ هـ.
٤٠. معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسوطي، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى: ١٤٠٨ هـ.
٤١. مفردات ألفاظ القرآن، للعلامة الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم دمشق، ط الثانية: ١٤١٨ هـ.
٤٢. مقدمة في خصائص الخطاب القرآني بين العهدين المكي والمدني، د. السيد عبد المقصود جعفر، دار الطباعة والنشر الإسلامية، ط الأولى: ١٤١٣ هـ.
٤٣. المكي والمدني في القرآن، د. محمد بن عبد الرحمن الشايع، ط الأولى: ١٤١٨ هـ.
٤٤. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي القاهرة، ط الثانية: ١٤١٣ هـ.

٧	- المقدمة
٩	- توطئة
٩	- تعريف المكي والمدني
١١	- المبحث الأول: خصائص الآيات المكية
١٣	- الخصائص الموضوعية للآيات المكية في حديثها عن القرآن الكريم
١٦	- أوصاف للقرآن الكريم لم ترد إلا في العهد المكي، الحكمة والدلالة
٢٠	- الخصائص الأسلوبية للقرآن الكريم في العهد المكي
٢٠	- فواتح السور
٢٠	- الحروف المقطعة
٢٢	- الافتتاح بالحمد
٢٣	- الافتتاح بالاستفهام
٢٤	- قوة الأسلوب وجزالته
٢٥	- قصر الآيات وقوة إيقاعها
٢٧	- بروز أسلوب التأكيد في العهد المكي
٢٨	- كثرة ورود الاستفهام الإنكاري في العهد المكي
٢٨	- بروز أسلوب القصر في العهد المكي
٣١	- المبحث الثاني: خصائص الآيات المدنية
٣٣	- ملامح المجتمع المدني
٣٣	- ظهور طوائف جديدة في العهد المدني
٣٤	- الخصائص الموضوعية للآيات المدنية في حديثها عن القرآن
٣٦	- أوصاف للقرآن الكريم لم ترد إلا في العهد المدني
٣٧	- كثرة الحديث عن أهل الكتاب
٤٠	- تكرار ورود لفظة الإعراض
٤٢	- الخصائص الأسلوبية للآيات المدنية في حديثها عن القرآن
٤٧	- إشارات مهمة في الخصائص المكية والمدنية في حديثها عن القرآن
٤٩	- المبحث الثالث: بيان الفروق التعبيرية بين المكي والمدني من خلال تحليل نصوص لكل منهما

الموضوع

رقم
الصفحة

- ٥١ - وقفات بلاغية مع آيات حديث القرآن عن القرآن في العهد المكي
- ٥١ - نموذج تحليلي من سورة الشعراء [١٩٥-١٩٢]
- ٥٧ - نموذج تحليلي من سورة السجدة [٣-١]
- ٦٤ - نموذج تحليلي من سورة يس [٦-١]
- ٧١ خلاصة الخصائص الموضوعية والأسلوبية لحديث القرآن عن القرآن في العهد المكي
- ٧٢ - وقفات بلاغية مع آيات حديث القرآن عن القرآن في العهد المدني
- ٧٢ - نموذج تحليلي من سورة النساء [٤٧]
- ٧٩ - نموذج تحليلي من سورة النساء [١١٣]
- ٨٧ - نموذج تحليلي من سورة الحشر [٢١]
- ٩٥ - الخاتمة
- ٩٩ - فهرس المصادر والمراجع
- ١٠١ - فهرس المحتويات

سيرة ذاتية



الاسم : عبد العزيز بن صالح بن عبد العزيز العَمار.

الجنسية : المملكة العربية السعودية.

مواليد : الرياض، عام ١٣٩٣ هـ، ١٩٧٣ م.

الشهادات العلمية :

١- الدراسة كلية اللغة العربية في الرياض، تم التخرج منها عام ١٤١٦ هـ بتقدير امتياز.

٢- الماجستير في البلاغة القرآنية بتقدير امتياز عام ١٤٢١ هـ بعنوان:

(حديث القرآن عن القرآن دراسة بلاغية تحليلية).

٣- الدكتوراه في البلاغة النبوية مع مرتبة الشرف الأولى عام ١٤٢٥ هـ بعنوان: (الاستفهام في الصحيحين: خصائصه التركيبية ومعانيه البلاغية).

الخبرات العملية :

عمل في كلية الشريعة واللغة العربية في إمارة رأس الخيمة في دولة الإمارات العربية المتحدة لمدة أربع سنوات وحالياً في كلية اللغة العربية في الرياض.

المؤلفات :

١- التصوير البياني في حديث القرآن عن القرآن.

٢- الخصائص الموضوعية والأسلوبية للآيات المكية والمدنية في حديث القرآن عن القرآن.

وثمة كتب أخرى تحت الطباعة منها:

١- آيات التحدي في القرآن الكريم (دلالاتها وإحياءاتها).

٢- الحروف في القرآن الكريم (أنواعها وبلاغتها).

بالإضافة إلى المشاركة في المجلات والصحف والمنتديات.

البريد الإلكتروني : a_s_alammar@hotmail.com

هذا الكتاب

فسأقف في هذه الدراسة مع خصائص هذه الآيات الموضوعية والأسلوبية، مستصحباً معي حال الأقوام التي تنزلت عليهم هذه الآيات، مبيّناً مدى توافق هذه الخصائص بنوعيتها، مع أولئك الأقوام، مبيّناً في الوقت نفسه الأسرار البلاغية، والنكت البيانية، في توافق هذه الخصائص في هذه المرحلة، والأهداف التي جاءت لتحقيقها، والأغراض المراد بيانها وتقريرها ... كما يُعطينا هذا المبحث دلالة مباشرة على أن لكل مقام مقالاً، فلكل قوم ما يخصهم من الخطاب، ومن ثم يأتي الخطاب في كل الظروف والأحوال متلائماً مع مقتضيات الأحوال، مراعيّاً لها.

وهل البلاغة إلا هذه.